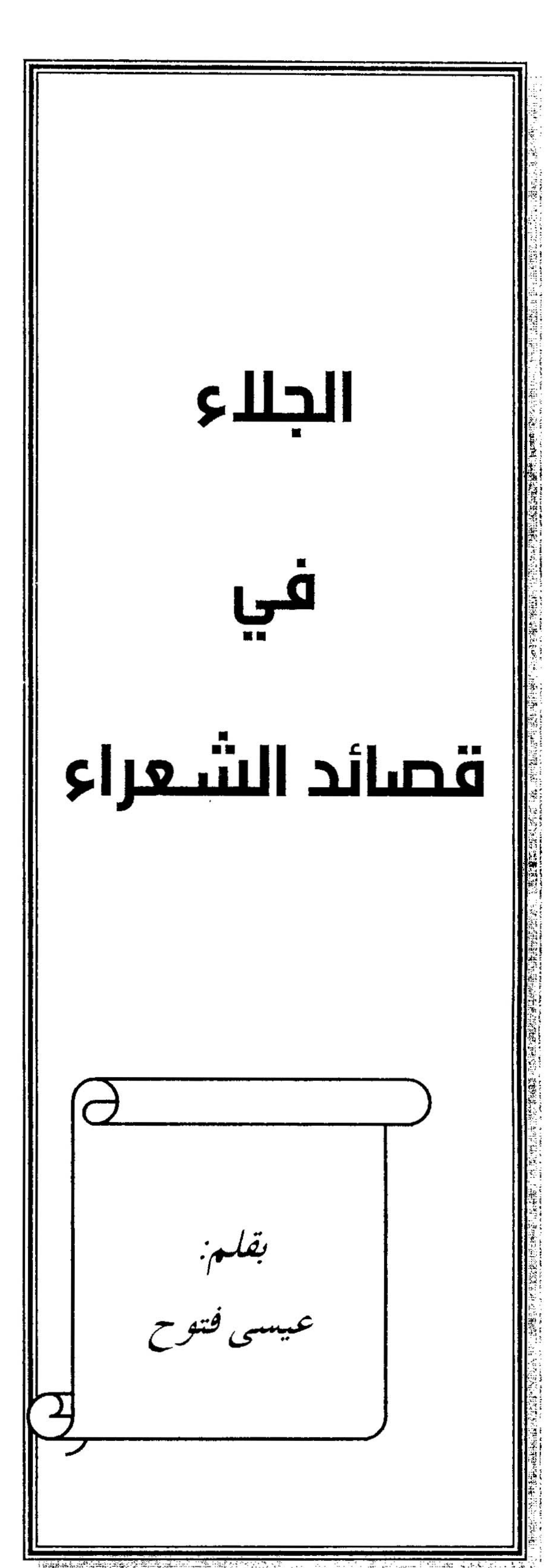


""يوم أغرُّ مشهرٌ سيظل أنشودةً في فم الزمـان، وبسمة في ثغر الصباح. يوم ألهم الشعراء والخطباء بجوامع الكلم، ونيرات القوافي، فخلبوا الألباب، وفتنوا العقول بأهازيج النصر وترانيم الظفر، يُنْشدونها تحيةً لسورية التي نالت الحرية والاستقلال"".

""فرحة فاضت بها الجوانحُ، فانبثقت على أطراف الألسنة وجوانب الأحداق، وتعالى صداها فغمر أجواء الفضاء، وتغلغل في التراب، فاهتز الأبطالُ في مضاجعهم، وسرت في الأضرحة واللحود رنةُ النبأ العظيمِ، فاختلج كل رفات والتمع ثراك يا سوريةُ، مُشعاً ببسمات العبقرية تطلع من خَلل التراب...""

""مهرجانٌ ولا كالمهرجانات، مهرجانُ الحق تألقت أنوارُهُ في مدائن سوريةَ، وانبسطت أشعتُه إلى بلاد العرب جمعاءَ، فانهزمت دونه دياجي الأتراح، وبدتْ سوريةُ في ذلك اليوم منارة عالية ترسل شعاعها الجوّالِ إلى العيون والقلوب في قَصي البقاع ودانيها، فتخضلُ المآقي بدموع الفرح، تتلألأُ في غمرةِ الضياءِ، وتخفقُ الأفئدة مغمورةً بسنا النعيم..."".

* * *

لو رحنا نجمع ما قيل في الجلاء من قصائد منذ عام ١٩٤٦ حتى اليوم، لألف ديواناً ضخماً، ذلك لأن الشعراءَ الذين عاصروا هذا الحدث الجلل في تاريخ سوريةَ، بعد أن عانَوْا من الاستعمار كل ألوان الأذى وصنوف القهر، لم يستطيعوا أن يكتموا هذه الفرحة العظيمةَ في قلوبهم، فعبروا عنها بأشعارهم المنظومة علىالطريقة التقليدية، لأن موجةَ التجديد لم تكن قد سرت بعدُ في جسم الشعر العربي.

لم تقتصر فرحة الجلاء على الشعراء المقيمين في الوطن الأم، ممن رزحوا تحت نير الاستعمار الفرنسي واكتَوَوْا بناره فحسبُ، بل وصلت إلى المهجرِ، ولا سيما المهجرُ الجنوبي، الذي كان يرتبط ارتباطاً وثيقَ الصلة بأحداث الأمة العربية عامة، وأحداث سوريةَ خاصة، في طليعتهم الشاعر القروي، والياس فرحات، وجورج صيدح، ونصر سمعان، والياس قنصل،وزكي قنصل... أما في سورية فقد ساهم الشعراء مساهمةً فعالة في صنع هذا اليوم الأغرِ في جبينها، فقصائدهم في ا لجلاء كانت حرباً لا هوادةَ فيها على المستعمر الغاشم، من هؤلاء: بدوي الجبل، وبدر الدين الحامد، وخير الدين الزركلي، وسليم الزركلي، وخليل مردم بك، وأنور

العطار، وشفيق جبري، وعمر أبو ريشة وعبد الله يوركي حلاق، وعدنان مردم بك، وسليمان العيسى، وكمال فوزي الشرابي، وأنور الإمام، وغيرهم.

لقد وقف الشعر الحماسي جنباً إلى جنب مع الثوار في غوطة دمشق، وجبل العرب، وجبل الزاوية، وجبال اللاذقية يُلهب النفوس الظامئة إلى الحريةَ، ويحرك الهممَ المتطلعة إلى الاستقلال والتخلص من نير العبودية والاستغلال والقهر... وهكذا فلمْ يتوانَ الشعراءُ عن القيام بدورهم الطليعي في قيادة الجماهير التي هبت كالمارد الجبار تطالب بالجلاء عن سورية، بعد أن جثم على صدرها أكثر من ربع قرن، وهي تتجرّع كؤوس العذاب، دون أ ن تكون هناك بارقة من أمل في النصر، كما يقول شاعر حماه بدر الدين الحامد:

ست وعشرون مرت كلما فرغت
جام من اليأس صرفاً أُترِعتْ جام

ولذلك لم يكِد يطويِ الاستعمارُ خيامَه على عجل، حتى دوّى صوته هادرا بفرحة الجلاء:

يوم الجلاء هو الدنيا وزهوتها
لنا ابتهاج وللباغين إرغام

ولا ينسى أن يشير في قصيدته إلى يوسفَ العظمة، شهيد معركة ميسلون - وأي قصيدة في الجلاءَ يمكن أن تُغفل شهيد ميسلون - هذا البطل الذي حمل روحه على راحته، وألقى بها في مهاوي الردى، وخرج ليقاتل المغيرين المدججين بأسلحة استعراضية خفيفة:

يا راقداً في روابي ميسلونَ أفقْ
جلت فرنسا، وما في الدارِ هضامُ
لقد ثأرنا وألقينا السوادَ وإن
مرت على الليثِ أيامٌ وأعوامُ

ثم تستبد به نشوة الظفر والانتصار، فيثني على بطولة سورية، التي كانت قبوراً للفاتحين منذ الأزل، لم تطأطئ رأسها لغاصب، ولم تحنِ هامتها لمعتد:

هذي الديارُ قبورُ الفاتحين فلا
يَغْرُرْكَ ما فتكوا فيها وما ضاموا
مهدُ الكرامة عينُ الله تكلؤها
كم في ثراها انطوى ناسٌ وأقوامُ

إن تراب سورية يغص بجثث الشهداء الذين صرعهم البغي على مر القرون، ويمتلئ في الوقت نفسه بأشلاء الغاصبين الذين ارتد كيدهم إلى نحورهم، ونالوا القصاصَ جزاء ما اقترفت أيديهم:

لو تنطقُ الأرضُ قالت إنني جدثٌ
فيّ الميامينُ آسادُ الحمى ناموا

-٢-

أما بدوي الجبل، هذا الشاعر العملاق الذي حمل راية الكفاح، وتنكر تحت اسمه المستعار ليتفادى صولة المستعمرين ويتقي شرورهم، بعد أن ملأت قصائده الوطنية الرنانة صفحات الجرائد العربية، فلم يَلِنْ، بل كان شعره حرباً على الفرنسيين طوال ربع قَرن، لا يفتأ يثير عليهم حمية الشام ونِقمَتها فهي:

عربيةُ الانساب تطربُ للوغى
في جاهليتها وَفي إسلامها
فإذا أراد زمامَها ذو قوة
شمَستْ على الباغي بفضلِ زمامهاَ
عطفتْ عليه بالسيوفَ كأنها
من حزمها صيغتْ ومنَ إقدامها
السُمْرُ حولَ قِبابها مركوزةٌ
والبيضُ لامعةٌ بظلِ خيامها
ولقد أراد بها القويُ تحكماً
فتنمرت أبداً على حكامها

فما إن قطفت سورية ثمرة الجلاء، بعد تعب طويل وصراع مرير، حتى راح يصف ذلك اليومَ المحجلَ في جبينها قائلاً:

انتزعنا الملكَ من غاصبه
وكتبنا بالدمِ الغمرِ الجلاءْ

ثم يبين ما كان للنساء السوريات من دور فعال في صنع الجلاء، فقد وقفن صفاً واحداً إلى جانبِ

المقاتلين في كل مكان، يُطْلقن الزغاريد كلما استُشْهد بطل، ويُثِرْنَ الحماسة في قلوب الثوار:

كلما جُنْدِلَ منا بطلٌ
زغردتْ في زحمةِ الهولِ النساء
كلما نادينَ فتيانَ الحمى
كَبّر الفتيانُ وارتدَّ النداء

أما يوم الجلاء الذي صنعه الثوار بفضل صمودهم، فجدير بأن يكتبه الله على وجه الشمس دلالةً على أهميته ومكانته في النفوسِ:

حقَ يومِ الشامِ أن تكتبَه
قدرةُ الله على وجهِ ذُكاء

لقد صاغ البدوي أبياته بديباجة أين منها ديباجة البحتري، وببلاغة مترفة رائعة، وأناقة لا تدانيها أناقةٌ كما في قوله:

همس الفردوسُ هل من نبأ
عن ربا الغوطةِ معسولِ الرجاءً
نحن للغوطةِ في الجلّى فدىً
ولهذا الكحلَ في العينِ فداء

-٣-

وهذا هو الشاعر سليم الزركلي صاحب ديوان ""دنيا على الشام"" يغني للجلاء من على منبر المدرّج الكبير في الجامعة السورية، يومِ ١٧ نيسان عام ١٩٤٦، حيثُ احتفلت سوريةُ بأول عيد لها، وأرسلت الدولُ العربية الشقيقة وفوداً رسمية لتشاركَ في الاحتفال فيقول:

اليومَ عيدُكِ يا دمشقُ فهلّلي
وتفتحي عن عالمٍ محسانِ
عيدٌ بأفراحِ الجلاءِ وصنوهِ
بتناصرِ الإخوانِ والأقرانَ
أبتِ العروبةُ أن تنامَ على الأذى
أو تنطوي في اليأسِ والنسيانِ
يا يومَ يَعْرُبَ في دمشقَ لك الفدا
حييتَ في الأزمانِ والأوطانِ

ثم يقف وقفةً لا بد منها عند قبر من سفح دَمَهُ الزكيَّ في ميسلونَ، وبذل روحه رخيصة، فيطلب السقيا لهذا القبر، ويعدّه كعبة المخلصين والأوفياء:

يا قبرَ يوسُفَ لا عَدَتْكَ مواطرٌ
هُنَّ الرجاءُ لموطنٍ ظمآنٍ
يا قبرَ يوسُفَ لستَ قبراً قائماً
ما أنتَ إلا كعبةُ الخُلْصانِ

ويتغنى بعد هذا بدمشق التي كانت ولم تزل مَعْقل الأحرار، ويصف كيف خفقت أعلامها، وعزت بعد ذل، وطربَت بعد سنوات من الحزن العميق، وراحت تبني حياتَها من جديد، وتنهض من كبوتها قوية شامخة جبارة:

أمعاقلَ الأحرارِ طابَ لك الجنى
وحلا لكَ التغريدُ في الأفنانِ
خفقتْ بكَ الراياتُ، يا لَخفوقِها
من بعدِ طولِ أسىً وطولِ هوانِ
الرايةُ الكبرى ترفرف، والعُلا
تبني معاهِدَها بكلِ مكانِ

ولا يكتفي بهذا القدْر، بل يُمْعن في التغني ببطولتها، ومكانتها التاريخية، وكيف قطّعت قيودَ الذل غيرَ عابئة بها، وكيف تخطت الشدائد رافعة الرأس، فكتبت أروع ملاحم البطولة بالحديد والنار، وهذه غوطتها التي استعادت فتنتها وسحرها شاهدٌ على ذلك:

أدمشقُ ما أنتِ الغداةَ بثاكلٍ
ما أنتِ بالنادي الخضيبِ العانيَ
ما أنتِ بالبلدِ المضيَّعِ حقهُ
ما أنتِ بالوطنِ القليلِ الشانِ
كم وثبةٍ لكِ في القيودِ تقطّعتْ
أسبابُها ودم تسرّبَ قانِ
ولكمْ أفقتِ على الشدائدِ والأذى
وسبحتِ في البلوى وفي الأحزانِ
رُضْتِ الجهادَ فما استكانَ لغاصبٍ
ولقدَ خططتِ ملاحمَ الفرسانِ
اليومَ تُبْتَعثُ الحياةُ فتيةً
في غوطَتَيْكِ وساحرُ الإرنانِ

ويحفزها أخيراً على هدم ما بلي ورث، لتعيدَ صنعه من جديد، ويشجعُها على أن تثبَ وثْبَتَها الجريئة غير هيابة، لأن الدهر لا يقف إلى جانب الخاملِ والضعيفِ:

فتجردي من كلِ قيدٍ مُقْعِدٍ
وتحفزي للهدمِ والبنيانِ
وثبي مع الأقدارِ لا تتهيبي
فالدهرُ ليس لخاملٍ مذعانِ
وحِذارِ أن تنسَيْ مواكبَ للعُلا
لُفَّتْ مع الأمجادِ في الأكفانِ

قلت إن جميع الشعراء الذين تغنَّوْا بالجلاء جنحُوا في قصائدهم إلى ذكر حادثتين هامتين في تاريخ سورية الحديث، ألا وهما استشهادُ يوسف العظمة، وضربُ دمشقَ بالمدافع عام ١٩٤٥، إلا أن شاعريةَ سليم الزركلي الفياضةَ أبت عليه أن يجمع في قصيدة واحدة بين ثلاث حادثات تشكل منعطفاً كبيراً في تاريخ سوريةَ القوميِّ، لذلك أفرد لضرب دمشق قصيدةً طويلةً، تُعَدُّ من عيون ما قاله في هذا المجال، وهي بعنوان ""ذكرى العدوان"" قدمها بما يلي:

""في اليوم التاسع والعشرينَ من أيارَ عام ١٩٤٥ طاش سهم السلطات الفرنسية، وانبرت تقصف دمشق بوابل من نيران مدافعها ورشاشاتها دون وعي، وقد شعرت أن أوان انفلات سورية من ربقة الانتداب قد حان، وراحت تضربُ ذات اليمين وذات الشمال، فوقعت ضحايا، وهدمت مبان، وحرّقت دور، وكان في جملة ما استهدف للنيران مبنى المجلس النيابي ومن فيه من جنودِ الدرك، فكانت هذه الحماقةَ الدامية العمياء، سبباً كافياً ليقظة الضمير العالمي، وتدخل هيئة الأمم المتحدة، وكان الجلاء..."".

القصيدة في أربعة وأربعين بيتاً، وعلى قافية واحدة، كقصائده كلِها، استهلها بقوله:

كفكفي الدمعَ يا بناتِ الهديلِ
وامسحي بالدماءِ جفنَ الأصيلِ
نشر الغدرُ في دمشقَ رُواقاً
يبعث الرعبَ ما له من مثيلِ
وهوى يحصد النفوسَ الأبيات
ويُزْهَى بالهدمِ والتقتيلِ

إن من يقرأ هذه القصيدة، لا بد أن يتذكر قصيدة ابن الرومي في خراب البصرة على أيدي الزنج، رغم الفارق الكبيرِ بين معالمِ دمشق الحضارية ومعالم البصرة، فلنسمَعْه يقول:

صورٌ تترك المدامعَ حيرى
بين مستعْبرٍ وبينٍ هَمُولِ
والردى مُشْرَعٌ أسنتهُ الحمرِ
مُغذٌ في الطعنِ والتمثيلِ
يفَرش الأرضَ بالدماءِ ليلهو
فوق أشلاء مثخنٍ وقتيلِ
حلف البغيُ أن ينكّلَ بالشا
مِ ويُجْري دماءها كالسيولِ

وهو إذ يذكر الضحايا في هذه النكبة النكباء، لا يراها أجساداً محطمة، أو أشلاء مبعثرة منثورة هنا وهناك، بل أقماراً سطعت لتنيرَ الدروب أمام الأجيالِ المقبلةِ لتعرفَ كيف تنتقم وكيف تثأر من جلاديها:

يا ضحايا وما أجلَّ الضحايا
في جهادٍ على البقاء طويلِ
أطلعتكمْ دنيا الشهادة أقماراً
تنيرُ الدروبَ بعدَ أفولِ
فاستضاءت بك عيونُ ليالٍ
كم أطافتْ على العلا بالدليلِ
الدمُ الحرُ لا يقيمُ على الضيـ
ـمِ وكم أجَّجَ اللظى في السهولِ

وينتهي إلى خطاب سورية بلهجة المرشد الناصح، أن تحشدَ قُواها، وألا تستسلم إلى الضعفَ والتخاذل، لأن ذلك لا يُقيلها من عَثْرتها، ولا إلى اليأس والرضى بالمطمح القريب المنالَ، بل عليها أن تنسى جراحاتها الدامية، لتتخطى تلال الشوك التي سدّت عليها الطريق:

يا بلادي وما ألوتك نصحاً
لا تسيري مع الهوى وتميلي
حشّدي فالحشود عز روابيـ
ـك وجدّي فما الونى بمقيل
كم خطوب وأدت بين ضلوعٍ
من لهيبٍ، ومُهْجَةٍ من نصول

وشــــهيد دفنــت بــين جفــونٍ
ونجيــــعٍ مِبــا كــان بــالمطلولِ
الجراحـــاتُ مــا تـزال تنـدّى
والكرامــاتُ مــا ونَـتْ عـن ذحــول

إلى أن يقول:

ضِلـةٌ الـرأي أن يراودَنــا اليـأ
سُ، ونرضـى مـن العـلا بالقليـلِ
إنمـا المجـد أن يطاوعَـك الـدهرُ
وتزْهـى بعسـكرٍ وخيـولِ

أما قصيدته ""رموز قاسيون"" التـي قالهـا فـي إحدى مناسبات الجلاء عام ١٩٤٧، فـأكتفي منهـا بهذه الأبيات القليلة، مشيراً إلى أن الشـاعر سـليم الزركلي قد أعطى دمشق وميسلون والجلاء أكثر مما أعطى أي شاعر آخر، فديوانه ""دنيا علـى الشـام"" زاخر بالقصائد التي استوحاها منها:

فجـرُ نيسـانَ ضـاحكٌ
بالأضـاحي مُنضَّـدُ
صـورٌ فـي جفونـه
رائعـاتٌ تَجَـدّدُ
ذكريـاتٌ مريـرةٌ
لـيس تَبْلـى تَـرددُّ

ويختم قصيدته الطويلة بقوله:

يـا ربـى الخلـد طاعـة
قاسـيونُ يُخلِّـدُ
للتعـالي جهادُنـا
والمواضـي تحـدّدُ
وعلـى دوحـة العـلا
فـالجلاءُ المؤبـدُ

وحسبي أن أُلمحَ إلى قصائده ""فرحـة الـدهر"" و""خواطر في ذكـرى الجـلاء"" و""هـذا الجـلاء"" التي ألقاهـا فـي ١٧ نيسـان عـام ١٩٦٦ فـي رابطة الحقوقيين بدمشق، لأقف عند هـذه الأبيـات الجميلة:

إنـي لأذكـرُ، والـذكرى مقدسـةٌ
يومـاً بأفراحـه الأعيـادُ تختـالُ
يـوم جـلا فيـه عـن دنيـا النعـيمِ أذىٍ
شـدَّ الرحيـلَ، فمـا يُعْييـهِ إرقـالُ
جـلا عـن الـدار، والخيـراتُ تطْمعُـهُ
وود لـو لـم يكـنْ بـينٌ وترحـالُ
جـلا وكـان ضـنى، فاستبشـرت أممٌ
ضـاقت مـذاهبُها، وانجـابَ بلبـالُ

-٤-

وما دمنا في معرض الحديث عن سليم الزركلي، فلنذكر ابنَ عمه خير الدين الزركلي، الذي لم يقصـر هو الآخر في بثّ لواعجه، ونشر أشجانه يوم ضُربت دمشق بمدافع الفرنسيين، فثارت ثائرته، واستشـاط غضبه، وكانت قصيدته، أو قل صيحته التـي تُفتـت الأكباد، وتُقطّع القلوب، ومن منا لم يحفظ هذه الدرة التي بنيت عليها، قبل سواها، شـهرة خيـر الـدين الزركلي كشاعر وطني بلا منازع، فلْنَسْمَعْه يستهلها بقوله:

الأهـلُ أهلـي والـديارُ ديـاري
وشـعارُ وادي النيـربينِ شـعاري
مـا كـان مـن ألـم بجلّـقَ نـازلٍ
واري الزنـادِ فزنْـدُهُ بـيَ وارِ
إن الـدمَ المهـراقَ فـي جنباتِهـا
لـدمي، وإن شِـفارها لشِـفاري

ثم يصف ألسنة اللهب المتصاعدة، وقـد راحـت تلتهم الأخضرَ واليابس، والذعر الذي انتاب الأطفـال في أحضانِ أمهاتهم، والشيوخَ الـذين اسـتهدفهم الفرنسيون، دون أن يرحموا شيخوختهم وضـعفهم، وهم بريئون من كل ذنب:

النـار محدقـةٌ بجلّـق بعـدما
تركـت ""حمـاةَ"" علـى شـفير هـارِ
تنسـابُ فـي الأحيـاء مسـرعةَ الخطـى
تـأتي علـى الأطمـارِ والأعمـارِ
والطفـلُ فـي يـد أمـه عـرضُ الأذى
يُرمـى ولـيس بخـائضٍ لغمـارِ

والشـــيخُ متكئـــاً علــــى عكـــازه
يُرْمَـــى ومـــا للشـــيخِ مـــن أوزارِ

أما الذين بقَوا في دمشق، وهي على هذه الحال، فكيف يَقَرُّ لهم قرار؟ إنهم ينتظرون الموت بين لحظة وأخرى، ولا سيما أن دخان الحرائق قد جعل الليل نهاراً، فلا يستطيعون التمييز بينهمـا، ناهيك عن القذائف التي تنصبُّ عليهم كالوابل المدرار:

صـبرت دمشـق علـى النكـال ليالياً
حُـرِمَ الرقـادُ بهـا علـى الأشـفارِ
لهْفـي علـى المتخلفـينَ برحْبِهَـا
كيـف القـرارُ ولاتَ حـينَ قـرارِ
يترقبـون المـوتَ فِـي غـدْواتِهم
وإذا نَجَـوْا فـالموتُ فـي الأسحارِ
لا يعلمـونَ أفـي سـواد دُجُنَّـةَ
هـم سُـهَّدٌ أم فـي بَيَـاضِ نهـارِ

ويحلل سبب غضب الفرنسيين على دمشق، فلا يجد له مبرراً سوى طبيعة الاستعمار الشرسة، ورفض دمشق الذل الذي أرادوه لها، ولهـذا دكوا معالمها الحضاريـة دكاً، حتى جعلوها أطلالاً كتدمر أو نينوى:

مـا دمروك هُـمْ ولكـنْ دمـروا
مـا كـان فيـك لهـم مـنَ استعمارِ
حملـوا عليـك مـواثبينَ ومـا لهـم
ثـارٌ، وثُـرتَ وأنـتَ ربـةُ ثـارِ
مـا ينقمـونَ عليـكِ إلا أنهـم
شَـهدوك غيـرَ مَقـودَةٍ لصِـغارِ
فـإذا المنـازلُ، وهـي شـامخةُ الـذرا
مُنْهـارُ أطـلالٍ علـى منهـارِ
وإذا المدينـةُ تَـدْمُرُ أو نينـوى
أنقـاضُ عمـرانٍ ورسـمُ دَمَـارِ

ويبارك أولئك الذين اشتروا ديارهم بدمارهم، والذين رفضوا حياة الشاء في يد الجزار، فثاروا هائجين:

المشـترونَ ديـارَهُمْ بـدمارِهِمْ
وهُـمُ يَـرَوْنَ بـه رَبَـاحَ الشـارِي
أنفـوا حيـاةَ الشـاء كـلَّ عشـية
وضُـحَىً تعيـثُ بهـا يـدُ الجـزّارِ

ثم يسخر من الفرنسيين الذين لاذوا بأذيال الفَرار، فاختبؤوا خلف الأسوار، وستروا فِرارهم بضرب الآمنين من الأطفال والمرضعات:

طـارتْ بألبـابِ الفرَنجـة صـيحةٌ
فـي الشـامِ فانـدفَعوا إلـى الأسـوار
واسـتهدفوا الأطفـالَ فـي حُجُراتِهـا
والمطفـلات وهـنَّ فـي الأخـدار
سـتروا بضَـرب الآمنـينَ فـرارَهُمْ
فاعجـبْ لعـارٍ سـتَروهُ بعـارِ

لا أشك في أن هذه القصيدة كانت صرخة جهاد، وصيحة ثأر، ودستور ثورة، زادت النار ضراما، وأذكت لهيبها.. حتى كان الجلاء.

-٥-

أما الشاعر خليل مردم بك فقد رثى يوسف العظمة في قصيدتين: الأولى ""ذكرى يوسف""، نظمها في نيسان عام ١٩٢٥، والثانية ""يوم ميسلون"" في تموز عام ١٩٣٠، ولم أعثر في ديوانه على قصيدة في الجلاء. يقول في الأولى:

أعكـفْ علـى جـدث فـي عـدوة الـوادي
بميسـلونَ سـقاهُ الـرائحُ الغَـادي
وطـأطئِ الـرأسَ إجـلالاً لمرقـد مـن
قضـى لـه الله تخليـداً بأمجـاد

ثم يصف خروج السوريين إلى صد جيش فرنسا الكامل العدد والعُدَّة، ويُثْني على إقدام شهيد ميسلون وجرأته ومغامرته بجيشه القليل:

فـي فتيـةٍ نفـروا للمـوت حـين بـدا
جريـدةً مـن زرافـاتٍ وآحـاد
صـلى الإلـه علـيهم مـن مجندلـةَ
أشـلاؤهم بـين أغـوار وأنجـادْ
فَـدّى العروبـةَ بـالنفس التـي كرُمَـتْ
يـا رَحْمَـةَ اللهِ للمفـدي والفـادي

وعاش ما عاش يحميها ويحرسهَا
ومات يدفعُ عن حوزاتِها العادي
قد كان قائدَهَا حياً وجامعَهَا
ميتاً، فبورك في الحالين من هاد

ولا يفوته أن يرسل حسراته وأشجانه على دمشق التي أحرقها الفرنسيون، بهذه الأبيات التي تنضح ألماً وحسرة، من قصيدة ""يوم الفزع الأكبر"":

باتت دمشقُ على طوفانٍ من لهب
يا دينَ قلبيَ من خَطْبٍ تكابدهُ
موجٌ من النارِ لا تهدأُ زَوَاخِرُهُ
يمدّه آخرٌ ما ارتدَّ وافِدُه
وَبْلُ القذائف هطّالاً له مددٌ
والنارُ والنفطُ والتهديمُ رافِده

لكن لم تكد الصحف العربية تتناقل هذه القصيدة الزاخرة بالنقمة والأسى، حتى جدت السلطات الفرنسية باعتقاله وزجه في السجن، فنزح إلى الإسكندرية، ومنها إلى أوروبا، وظل غائباً مدة أربع سنوات ونصف السنة.

أما قصيدة ""يوم ميسلون"" فتعتبر من أروع ما قاله الشاعر خليل مردم بك، فقد صب فيها جام نقْمته على الفرنسيين الغزاة، ونفّس فيها شحنات ألمهَ الدفين على مصرع بطلها، وكل ذنبه أنَه خرجَ للدفاعَ عن وطنه وردِ المغيرين عليه:

أيوسفُ والضحايا اليومَ كُثْرٌ
ليهنكَ كنتَ أولَ من بداها
غضبتَ لأمةٍ منها مَعَدٌّ
فأرضيتَ العروبةَ والإلها
فيا لكَ راقداً نبَّهتَ شعباً
وأيقظتَ النواظرَ من كراها
ويا لكَ ميتاً أحييتَ منا
نفوساً لا تَقَرُّ على أذاها

إلى أن يقول:

مصيبةُ ميسلونَ وإن أمضّت
أخفُ وقيعةٍ مما تلاها
فما من بقعةٍ بدمشقَ إلا
تمثلُ ميسلونَ وما دهاها
ولم أرَ جنةً أمسي بنوها
وَقُودَ النارِ فائرةً سواها

-٦-

ترى هل يمكن أن نمر بقافلة الشعراء السوريين الذين هللوا للجلاء وهزجوا بمناسبته، وننسى الشاعر عبد الله يوركي حلاق، صاحبَ مجلة ""الضاد""، الذي نذر نفسه لخدمة قومه، وعروبته منذ فجر شبابه حتى آخر حياته، فلم يُعْرَف عنه أنه تهاون أو فرَّط في حق لغته أو بلاده، وهذا ديوانه الثاني ""حصاد الذكرياتَ"" يضم مجموعة من القصائد الوطنية العامرة بروح الثورة والحمية، أسماها ""أناشيد الجهاد""، منها قصيدته ""ذكرى الجلاء"" التي استهلها بقوله:

ذكرى الجلاءِ ترفُ في أفقِ المنى
فتعيدُ ذكرى ثورةٍ وجلاد
أيامَ أمطرنا الرصاصَ بوابلَ
يفري الحشا، ويفتُّ في الأعضادَ
لكنه ما فتَّ من أعضادنا
الحرُّ لا يخشى الحمامَ العادي
صمدت له منا الجموعُ وكافحت
من أجلِ أعلامٍ وأجلِ مبادي

ليس في قصيدة الشاعر عبد الله يوركي حلاّق ذلك العمل الفني الذي نلمسه في قصائد عمر أبو ريشه أو بدوي الجبل، إلا أنها ولا شك غنية بالعاطفة الصادقة والإحساس المرهف، والإيمان العميق بالعروبة والحق الذي لا يصل إليه الإنسان إلا على جسر من جثث الشهداء:

فالحقُ تُحْرِزُهُ الإباءةُ بالدِّما
الحق لا يُجْنى بلا استشهاد
والمجد لا يبنيه غيرُ أعزة
بصوارمٍ حُمْرٍ وبيض أيادً
تلقى الصوارمُ في أكفِ رجالنا
عزاً فتأبى صُحْبَةَ الأغماد
لم يذعنِ العربُ الأباةُ لظالمٍ
كلا ولا صَبَروا على استبدادٍ

وهو إذ يقول ذلك فلمعرفته الحقيقية بطبيعة قومه العرب الأباة، الذين لم يعتادوا على الذل، ولم يـألفوا الهوانَ في أي عهد من عهودهم الطويلة:

تـأبى العروبـة أن يُسـامَ مُقَامُنَـا
خفضـاً وتـأبى رِفعـةُ الأجـداد

-٧-

كم كنت أمني النفس، حين رحت أقلب ديـوان "ظلال الأيام" للشاعر أنور العطار، الذي طبع عـام ١٩٤٨، أن أعثر على قصيدته الرائعة في الجـلاء، لأدرسها دراسة مستفيضة، وأقف عند كل جزئية من جزئياتها وقفة متأنية مطمئنة، فأصبت، لسوء الحظ، بخيبة أملٍ، ولذلك اكتفيت ببضعة أبيات منها لملمتها من هنا وهناك، كما يلملمِ الشحيح دراهمـه، وأنـا أعرف أنها لا تنقع الغليل، ولا تَبُلّ الصدى.

يوقظ الشاعر في أبياته الماضيَ العريقَ، لينظـرَ إلى روعة الحاضر، وكيف راحت سـورية العربيـة تبني مجدَها، وتَشيد صرح عزها، بعـد أن ظَفـرَتْ بالاستقلال:

أشـرقي يـا روعـةَ الماضـي علينـا
واسـبقي إشـراقةَ الفجـرِ إلينـا
وتعـالَيْ وانظـري كيـفَ بنينـا

ثم يحدثنا عـن افتتـان السـوريين بأوطـانهم، واستماتتهم في سبيلها، وحبهم إياها إلى حد العبادة، لأنهم أباة يكرهون الضيمَ ويرفضون الذل:

هـذه أوطانُنَـا نحمـي حماهـا
أيُ قلـبٍ لـم يتيّمـه هواهـا
أيُ نفـسٍ حـرةٍ ليسـتْ فـداها

فما إن يرحل المعتدي عن أرض الـوطن، حتـى تزدانَ ربوعُه بالزينات، وتعمَّـه الأفـراحُ، وتسـودَ البهجةَ النفوس، ولا بِدْع، فالجلاء يوم أغرّ مشـهرٌ على مر الزمان، يوزعُ الخيرَ والسعادةَ على غيـره من الأعياد، فلتفرحْ دمشقُ إذن، وتهللْ بهذا اليـومِ الطروبِ:

قـد جـلا العـادي عـنِ الربـعِ الحبيـبْ
وتـلالا السـعدُ فـي الأفـقِ الرحيـبْ
فابسـمي فيحـاءُ لليـومِ الطـروبْ

هـوِ فـي جبيـنِ الـدهر غُـرَّهْ
كـلُ عيـدٍ يسـتقي منـه المسَـرَهْ
كـلُ سـحرٍ فـي الـورى يَحْسُـد سـحرهْ

أبيات على قلتها، تنسـاب موسـيقاها الشجية انسياب الماء من النبع الرقراق، فتتغلغل في حنايـا النفس، وتستقر في أعماق الوجدان.

-٨-

أما شاعر الشام شفيق جبري فقد نظم قصـيدتين في الجلاء الأولى عام ١٩٤٦ والثانية عـام ١٩٦٠ ونشرهما في ديوانه "نوح العندليب" الذي صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٤، وقد كانـت الأولى صرخة مدوية، ونفثة حارة صادرة عن قلـب مكلوم، حتى حفظها كل الناس في كل زمان ومكان، لما تضمنته من وصف رائع لأفـراح الجـلاء التـي عمت الوطن، وغمرت كل أرجائه، وللمآسي الداميـة التي عاناها الشعب السوري وتحملها صابراً طـوال ستة وعشرين عاماً حتى ظفر بالجلاء.

يقول في الأولى وهو لا يكاد يصدّق أهو في حلم أم في حقيقة يوم عيد الجلاء وقد تعالـت الزغاريـد ورُفعت الأعلام:

حُلُـم علـى جنبـاتِ الشـامِ أم عيـدُ
لا الهـمُ هـمٌ ولا التسـهيدُ تسـهيدُ
أتكـذبُ العـينُ والرايـاتُ خافقـةٌ
أم تكـذِبُ الأذنُ والـدنيا أغاريـدُ

يا لها من فرحة كبيرة انجلت فيها سحب الهموم، واستسلمت العيون إلى كراها بعد سنوات طويلة من الأرق والسهاد. ثم يتساءل عما حـل بالفرنسيين، وقد صار لا يسمع لهم حساً، ولا يقف لهم على نبأ، لكنه سرعان ما يجيب نفسه بأنهم رحلوا إلى غيـر رجعة مدحورين مقهورين، يجـرون أذيـال الخيبـة والخسران:

ويـــلَ النماريـــــد لا حـــسٌ ولا نبـــأُ
ألا تُـــرى مـــا غـــدتْ تلـــكَ النماريـــدُ؟

لم تكن فرحة الجلاء عند جبري فرحة آنية عابرة، بل فرحة عميقة أسكرت القلوب، وأسالت الدموع على الخدود. أفلا يبكي الفرحُ الإنسانَ مثلما يبكيه الحزن؟:

كـــأن كـــلَ فـــؤاد فـــي جلائهـــمُ
نشـــوانُ قـــد لعبـــتْ فيـــه العنَاقِيـــدُ
مـــلء العيـــون دمـــوعٌ مـــن هناءتِهـــا
فالـــدمعُ درٌ علـــى الخـــدين منضـــودُ
علـــى النـــواقيسِ أنغـــامٌ مسـّـبحة
وفـــي المـــآذنِ تســـبيحٌ وتحميـــدُ
لـــو ينشـــدُ الـــدهرُ فـــي أفراحنـــا مـــلأت
جوانـــبَ الـــدهرِ فـــي البشـــرى الأناشـــيدُ

والعيد لا بد أن يذكر الشاعر بالمرحلة المرة التي سبقته، فهو لم يأت عفواً، ولم يقدم هدية، بل دفع السوريون ثمنه باهظاً في التاسع والعشرين من أيار، يوم نكبت دمشق أسوأ نكبة، وروعت بإشعال النيران فيها أبشع ترويع، ولا سيما الأطفال الذين لـم تهـدأ مخاوفهم:

يـــا يـــومَ أيـــارَ والنيـــرانُ مُلْهَبَـــةٌ
علـــى دمشـــقَ تلظيهـــا جلاميـــدُ
هـــذي ضـــحاياكَ فـــي الأيـــامِ آبـــدةٌ
وللضـــحايا علـــى الأيـــامِ تأبيـــدُ
الطفـــلُ فـــي المهـــدِ لـــم تهـــدأْ ســـريرتُهُ
مـــروَّعٌ مـــن لهيـــبِ النـــارِ مكـــدودُ
تلفـــه أمـــهُ مـــا بـــين أضـــلعها
وموقِـــدُ النـــارِ مطـــرابٌ وغرّيـــدُ

أما القصيدة الثانية التي ألقاها في النادي العربي بدمشق في ١٧ نيسان ١٩٦٠ فقد سار فيهـا علـى خطا ابن زيدون وشوقي وقلدهما في البحر والقافيـة دون أن يقصّر عنهما، وقد عرض فيها - كما يقول - حوادث أربعين سنة، ومثل فيها دمشق وثورتهـا ومظاهراتها أحسن تمثيل، وقد غلبت عليها النزعـة الشامية، وظلت حديث الناس زمناً طويلاً، ومما قاله فيها:

قـــد يجمـــد الـــدمعُ إلا فـــي مآقينـــا
ويبـــردُ الجـــرحُ إلا فـــي حواشـــينا
ذكـــرى الشـــدائد مـــا تنفـــك ماثلـــةً
فـــي أرْبُـــع الشَـــامِ نطويهـــا وتطوينـــا
كـــم طـــاعَنَ الشَـــامَ فـــي الماضـــي جبـــابرةٌ
حتـــى أذاقـــتْ مناياهـــا المطاعينـــا
لله دمـــعٌ شـــقينا فـــي ســـوافحه
بميســـلونَ ولا ســـلوى تســـلّينا
هبَّـــتْ دمشـــق لـــدفعِ الضيـــمِ فانكفـــأت
ولهـــى تجـــر الأســـى شـــمْلا أيامنـــا
حتـــى جـــلا عـــن ديـــارِ الشـــام غاصـــبُها
فـــي كمـــدة اليـــأسِ لا دنيـــا ولا دِينـــا
يـــومَ الجـــلاءَ ! فمـــا أبقيـــتَ مـــن شـــجن
فـــي مصـــرَ والشـــامِ نلفيـــهِ ويُلْفينـــا

-٩-

وينطلقِ من حلب صوت الشاعر الكبير عمر أبـو ريشة قوياً هادراً مجلجلا فـي قصيدته التاريخيـة العصماء ""عرس المجد"" التـي ألقاهـا فـي حلـب بمناسبة الحفلة التذكارية التي أقيمت فيها في السابع عشر من نيسان ١٩٤٧ ابتهاجاً بجـلاء الفرنسيين عن أرض الوطن، فراحت حناجر المغنين تشدو بها، وتترنم بموسيقاها الرائعـة، ومعانيهـا البليغـة، وصورها الجميلة، وحكمها الخالدة، وبلغـت أبياتهـا تسعة وخمسين بيتاً... وقد راح يخاطب في مطلعهـا عروس المجد (سورية) لتتباهى وتفخر، وتجر ذيول النجوم تيهاً واختيالاً، بعد أن حققت نصرها المؤزر، وسقت رمال صحاريها بدماء الشهداء الزكية، قائلا:

يـــا عـــروسَ المجـــد تيهـــي واســـحبي
فـــي مغانينـــا ذيـــولَ الشـــهْب
لـــن تـــرَيْ حفنـــةَ رمـــلٍ فوقهـــا
لـــم تُعَطَّـــرْ بـــدما حـــرٍّ أبـــي
درج البغـــيُ عليهـــا حقبـــةً
وهـــوى دونَ بلـــوغِ الأرب
وارتمـــى كبـــرُ الليـــالي دونهـــا
لـــينَ النـــابِ، كليـــلَ المخلـــب
لا يمـــوتُ الحـــقُ مهمـــا لطمـــتْ
عارضـــيهِ قبضـــةُ المغتصـــبِ

ويفخر بأننا بنينا من الضعف قوة، ولـم ترهبنـا طيارات الأعداء، ولا نيران أسلحتهم، وقـد خضـنا

معارك خاسرة خلال التاريخ، لكننا مع ذلك لم تلن قناتنا، ولم تتنكس رؤوسنا، ولم تنكسر حرابنا، فعلى الإنسان أن يحارب ويقوم بواجبه المقدس نحو الوطن، سواء انتصر أم لم ينتصر:

نحن من ضعف بنينا قوةً
لم تلنْ للمارج الملتهبِ
كم لنا من ميسلون نفضتْ
عن جناحيها غبارَ التعبِ
كم نبتْ أسيافنا في ملعبٍ
وكبتْ أجيادنا في ملعبِ
شرفُ الوثبة أن ترضي العلا
غلبَ الواثبُ أم لم يُغْلَبِ

ويؤكد في نهاية القصيدة أن العرب كانوا وسيظلون وحدة قوية متماسكة، تلم المصائب شملهم، وتجمع الجراح بينهم، وتدفعهم إلى المزيد من الالتئام والتعاضد والتناصر في وجه كل طامع يريد النيل من كرامتهم:

لمت الآلامُ منا شملَنَا
ونمتْ ما بيننا من نسبِ
فإذا مصرُ أغاني جلقٍ
وإذا بغدادُ نجوى يثربٍ
ذهبتْ أعلامها خافقةً
والتقى مشرقها بالمغربٍ
كلما انقضَّ عليها عاصفٌ
دَفَنَتْهُ في ضلوعِ السحبِ
بوركَ الخطبُ فكم لفَ على
سهمهِ أشتاتَ شعب مغضبِ

-١٠-

كذلك يرتفع أيضاً صوت سليمان العيسى، صاحب دواوين: ""أعاصير في السلاسل"" و ""رمال عطشى"" و ""قصائد عربية""، هذا الشاعر الذي عشق الوطن عشقاً صوفياً، وهام بحب العروبة إلى حد الوله، وعاش حياته يحلم بأن يرى العرب وحدة قوية متماسكة من المحيط إلى الخليج، وقد هزته فرحة الجلاء، وأطلقت لسانه فقال في قصيدة بعنوان ""رسالة من فتاة إلى خطيبها في الجبهة صباح عيد الجلاء عام ١٩٥٧"":

الصبح لملمِ... عن ذرى ""قسيونٍ"" أهدابَ الظلامِ
والربوةُ الخضراءُ... أغنيةٌ تهز بلا كلامِ
والشامُ... ساقيةُ الربيعِ، ولو غرفت بأي جامِ
بردى وأمواجُ الضياءِ، وعطرُها بعضُ المُدامِ
والعيدُ في نيسانَ سكرةُ أمةٍ وشبابُ عامْ
بُعثتْ بلادي... فالربيعُ شموخُ نأصيةٍ وهامْ..

إلى أن يقول:

وضاحُ حدثني متى تصفو لنا نعمى الجلاء؟
أنظل نستهدي الجراحَ، ونقتفي ألقَ الدماء ؟..
شعبي بخطِ النارِ يقتنص الحياةَ من الفناء

-١١-

ويشارك الشاعر المرهف كمال فوزي الشرابي صاحب ديوان ""الحرية والبنادق""، في قصيدته ""تحية الجلاء"" الوطن بأفراحه، وقد شهدها وعاش زهوها في بداية الاستقلال، فراح يخاطب الشام بأن تملأ الدنيا بمباهجها، وتنشرها في كل مكان قائلاً إن هذا العيد هو عيد الهدى والكبرياء والانتصار على الغاصبين بعد أعوام مديدة من الظلام الدامس الذي خيم على البلاد:

يا شآم العزِ، يا أرضَ العلاءِ
يا منارَ العربِ في درب الفداءِ
عيدُنا عيدُ الهدى والكبرياءِ
فاملئي الدنيا بأفراحِ الجلاءِ

ويفخر بأن الشعب السوري لم يطأطئ الرؤوس، ولم ينحنِ تحت نير البغي أو سيف الغزاة، بل ظل شامخاً أبياً:

شعبنا ما ذل يوماً ما انحنى
تحتَ نيرِ البغي أو سيفِ الغزاة
من هنا، من أرضنا خطَ السنا
في كتاب الدهر أمجادَ الحياة
في كفاحٍ شامخٍ هز الدنى
أموي العزمِ وضاءِ السمات

كانت قرائح الشعراء تتفتح كلما أطل شهر نيسان في الأفق، وتفتقت أكمام الورد، وسوف تظل تتفتح

وتفتق معها أحلى الكلام لأعظم عيد في تاريخ سورية رغم مضي السنوات الطويلة على جلاء فرنسا، وأنا واثق من أن ثمةَ قصائد في الجلاء لم تنشرْ، ولم تزلْ في أدراج ناظميها، وإنما ألقيت من على المنابر فقط، وظلت بعيدة عن أنظار الدارسين...

-١٢-

بقيت هناك قصيدة للشاعر أنورِ الإمام في الجلاء، قيلت في السبعينات، تتسق كل الإتساق مع ما قيل فيه من قصائدَ أفكاراً، ووزناً، وأسلوباً وطريقة نظم لم يَحدْ الشاعر عنها، رغمَ انداح موجةِ التجديد في الشعر المعاصر.

يستَهل أنور الإمام قصيدته بمعنىً ربما يكون قد سبَقَه إليه غيرُه ممن نظموا في الجلاء، وهو أنه لولا الشهادةُ والفداءُ لما لاحت في الأفق بارقة أمل في انقشاع غيوم المستعمرِ عن البلاد، وأن الشعوبَ لا تنال حقها إلا بنضالها، وأن المجد لا يورق ما لم تسقه الدماءُ، وإذا سُقيت الأرضُ بالدماءِ الزكيةِ، أنبتتَ أبطالاً لا يهابون المَوت:

مَهْرُ الجلاء شهادةٌ وفداءُ
لولاهما ما كان ثَمَّ جلاءُ
حقُ الشعوب تنالُه بنضالها
والمجدُ يورق ما سقته دماءُ
والأرضُ إن عبّت نجيعاً عاطراً
فنباتُها الأبطالُ والكرماءُ

ثم يتحدث عن وقفة العز المشرفة التي وقفها شعبنا البطل قبل الجلاء، وعن تصميمه الأكيد على دحر الغزاة الغاصبين، وصيحاته المجلجلة التي اهتز لها الكون، تنادي بخروج أولئك الذين راحوا يتباهون ويختالون عجبًا، كأنهم سادةٌ ونحن عبيد:

إني لأذكرُ وقْفَةً يزهو بها
قومي وتفخَرُ باسمها العلياءُ
الشعبُ في ساحِ النضالِ مصممٌ
لا ينثني أو يخرجَ الدخلاءُ
أنفَ اختيالَ الغاصبين فجلْجَلتْ
صَيحاتُهُ فاهتزت الأرجاء

ويقف - كما وقف غيره من الشعراء - عند حادثة ضرب دمشق، يوم صب الفرنسيون الرصاص عليها كالحمم، ودمروها بمدافعهم وقنابلهم بلا رحمة أو شفقة، فصمدت صمودَ الجبل الأشم، واستماتت في الدفاع، حتى تحققت أمنيتها الكبرى في الجلاء، وقطفت ثمرة النصرِ والحريةِ والاستقلال:

ركب الطغاةُ رؤوسَهُمْ وتحكمتْ
في الأمرِ منهم نَقْمَةٌ هوجاءُ
صبوا القنابلَ كالحميم وجلقٌ
طودٌ عليه تَحَطَّمُ الأنواءُ
صمدت بساحات النضالِ وصانها
شعبٌ إلى غاياتهِ مشّاء
خرجوا وعيدُ العُرْبِ يومَ جلائهمْ
عيدٌ عليه منَ الجلالِ رواء

ويبارك نَيسانَ، شهرَ الكرامات والخير والعطاء، شهرَ الأعياد القومية، شهرَ استيقاظ الطبيعةَ والإنسان معاً، شهرَ انتشار العبير وتفتحَ الورود، وهل هنالك ورود أشهى من الجلاء، كما يقول الشاعر:

نيسانُ يا مَنْحَ الورود شهيةً
أشهى الورود تفتحٌ وجلاءُ
مرت بشائره معطرةَ الرؤى
في ميسلونَ فزغرد الشهداءُ

ويلتفت أخيراً إلى أبي الشهداء يوسف العظمة، يدعوه إلى النهوض من قبره في هذا اليوم التاريخي، ليشارك الشعب أفراحه، ويرى الشامَ وقد رحل عنها الدخلاء، ثم يؤكد للغاصبين أن سورية إذا ما وعدت وصممت، فلا بد أن تنجزَ وعدها، وتحقق تصميمها:

وأطلَّ يوسُفُ والبهاءُ يَزينُهُ
ليرى الشآمَ وقد جلا الدخلاءُ
ليقولَ للغازينَ إن عهودَنا
رغمَ الشدائد ذمةٌ ووفاءُ
تطوى الليالي الكالحاتُ وينجلي
صبْحُ أصيلٌ مشرقٌ وضاءُ

-١٣-

فإذا انتقلنا إلى المهاجر، وجدنا الصيحات المدوية في شعر جورج صيدح، هذا الرجل الوطني الحر الذي ظل مقيماً على الوفاء لعروبته الصافية، منذ أن غادر مسقط رأسه دمشق، فها هو ذا يرفع صوته من بونس آيرس، عاصمة الأرجنتين قائلاً:

هيئي يا دمشق أقواسَ نصر
من عناقِ الأعلامِ والمشرفيهْ
وانظمي موكبَ الجلاءِ وسيري
أمةً بالجهادِ تبُعثُ حيّهْ

ثم يشير إلى مواكب الشهداء، وقوافل من صرعهم بغي المستعمر، فانطووا في ظلمة القبورِ، وناموا تحت الصخور، لو حياهم أحدٌ في هذا اليومَ الأغر، لردوا عليه التحية:

في طريقٍ تعبدتْ بالمواضي
كل باعٍ بها ضريحُ ضحيه
كم شهيدٍ تحت الجنادلِ مضغٍ
إن وقفتمَ عليه ردَّ التحيَّهْ

قصيدة رائعة، يحار الدارس ماذا يختار منها، وماذا يترك، ضمها ديوانه ""حكاية مغترب"" وكل بيت أجمل من أخيه، لذلك لا بد من الرجوع إليها كاملة في الديوان، وحسبي أن أثبتَ منها هذه الأبيات التي تنم عن تعلق صيدحٍ بوطنه، ونموِ الحسِ القومي عنده،:

يا لَعيدٍ تزفُ جلّقُ فيه
آيةَ الحقِ للشعوبِ العتيَّهْ
رحل الضيفُ مثقلا بالمعاصي
يركب العارَ في البحار مطيه
زغردي يا حرائرَ الشامِ هذا
مهرجانٌ لأختك الحريه
خطبوها في ميسلونَ فأدى
""يوسفُ"" المهرَ بالدماءِ الزكيه

أقسم أنني لم أقرأ أجمل من قوله: إن يوسفَ العظمة خطب الحرية، فقدم لها دماءه الزكية مهراً، ألا بورك هذا المهر، وبورك قائل هذا المعنى الرائع الذي قل أن يفطن به شاعر.

-١٤-

أما قصيدة الشاعرِ نصر سمعان، شاعرِ العروبةِ، كما كان يلقبُ، فلا تقِل روعة عن قصيدةَ صيدحَ. إنها درةٌ فريدة حواهَا ديوانه الذي طبع بعد وفاته في البرازيل عام ١٩٧٢، وأشرف عليه رشيد شكور، ولا غروَ، فنصر سمعان شعلة قومية وهاجةٌ، سطعت في سماء المهجر الجنوبي ثم انطفأتْ، وخلّفت حرارتها التي ما تزال تستعرُ فينا، بل في قلبِ كل عربي مؤمنِ صادقِ العروبة. هذا و نصر سمعان من حمص، أو مَن بلدةِ ""القصيرَ"" على وجه التحديد، هاجر وقلبُه لا يخفقُ بغير حب قومه، وسعيه لرفعتهم وسيادتهم، ووحدة كلمتهم، فلنسمعْه يقول في الجلاء:

نبت العزُ في ظلال بنودهْ
ومشى النصر في ركاب جنودهْ
وطنٌ كم وددتُ في عيدهَ الأكـ
ـبر لو كنتَ شاهداً من شهوده
هتفَ المجدُ باسمِ أبطاله الصيـ
ـد وهزِ الزمانَ ذكرُ عميدهْ
وكسا البِشْرُ أرضَه وتجلت
زهوةُ الفتحِ في مواكب عيده
ثأرَ الحقِ فالأغاريدُ تترى
والزغاريدُ فوقَ قبرِ شهيده

والجلاء في ذهن كل عربي يرتبط ارتباطاً وثيق الصلة بيوسف العظمة، فلا بد أن ينال هو الآخر حصته من التمجيد وإكبار بطولته الخارقة، وشجاعته الفريدة فيقول:

شرفا ميسلونَ كل جهاد
شرّفَ العربَ أنتِ درة جيدهَ
أيقظي يوسفَ الشهيد فهذا
العيد يا ميسلون عيدُ خلوده..

ثم يختم قصيدته بهذه الأبيات التي تعبّر عن صدق محبته لبردى، وميسلون التي مهرت الجهاد أغلى الغوالي:

شــــرفاً ميســــلونُ مجـــدُك بـــــاق
أي عــــات يقـــوى علـــى تَبديــدهْ
يومُـــك الأبلـــجُ الوضـــيءُ المحيـــا
زان نـــورَ الوجـــود نـــورُ وجـــوده
بـــردى ينشـــدُ الأهـــازيجَ والأر
زُ تحييـــكَ روحُـــهُ بنشـــيده
وحمـــى كـــلِ نـــاطقٍ عربـــي
يطفَـــحُ البشْـــرُ مـــن ثغـــورِ وروده
قـــد مهـــرت الجهـــادَ أغلـــى الغـــوالي
فحبـــاك الجهـــادُ أغلـــى عقـــوده
أنـــت يـــا ميســـلونُ معقـــلُ شـــعب
خفقـــاتُ القلـــوبِ خفـــقُ بنـــودهِ

وعندما قصف الفرنسيون دمشق وأحرقوها، كان لذلك الحادث المفجع رد فعلٍ كبيرٌ في نفسه، فـراح يقول والأسى يعصر قلبه:

هبـــتْ وعـــينُ الزمـــانِ ترقُبُهَـــا
وخـــاض بَحْـــرَ الرجـــاءَ مركبُهـــا
الله فـــي أمـــة مجاهـــدة
ســـعيرُ حمـــى الآبـــاء ينْهَبُهـــا
لا عاديـــاتُ الزمـــانِ تَقْهرُهـــا
ولا مراقـــي الطمـــوحِ تتعبُهـــا

-١٥-

هناك شاعر آخـر، أحببـت أن أجعلـه خاتمـة المطاف، ألا وهو زكي قنصل، الـذي اغترب فـي الأرجنتين، ومن ومنا يجهل شاعر ""غَلْواء"" كمـا يسمي نفسه، وصاحبَ ديوان ""نور ونار"" وديـوانِ ""عطش وجوع""، وهو الذي ملأت قصائدَه الهـادرةُ دنيا العرب، يرفع صوته في كـل مناسـبة قوميـة، ليستنهضَ همةَ شعبه، ويبعـثَ فيـه روحَ النخـوة والحمية؟ ولا أبالغ إذا قلـت إنـه خليفـة القـرويَ وصيدحَ وفرحات في المهجر الجنوبي، عقـدوا لـه لواء الشعر الأصيل الذي ينبع من نفـس محترقـة، ويتحدَّر من وجدان حي، وطبع مرهف، كما يتحـدر السيل، أو كما يتفجر اليَنْبوع من قلب الجبال.

لا أظن أن أحداً يستطيع أن يُنكرَ علـى الشـاعر زكي قنصل صفاءَ عروبته، ونبل عَقيدتـه، وشـرفَ أهدافه، فقد حملَ رايةَ القومية العربية خلف البحار، وكأنَهَ سفيرٌ بلا سفارة، فلا غرابةَ أن يؤلـفَ عنـه الأستاذ عبد اللطيف اليونس كتاباً كاملاً، يدرسُ فيـه حبهُ وحنينهُ، ويتحدث عن تعلقه بوطنـه الأم، كمـا يتعلق الرضيع بِثدي أمه.. ولذلَكَ لـم تكـدْ الجاليـة العربية السورية في الأرجنتين تعلن عن عزمها على الاحتفال بأول عيد للجلاء عام ١٩٤٦، حتى كان أول المتكلمينَ فيهِ، فلنَسمعه يقول:

ثـــورةُ الشـــعب لـــم تـــزل فـــي البدايـــهْ
ضـــل مـــن يَحْســـبُ الجـــلاءَ نهايـــه
ألـــفُ الحمـــد لا تمثـــل إلا
مَطْلـــعَ الحمـــد لا ختَـــامَ الآيـــه
قـــد تبـــاس الشـــعوبُ بالســـوط لكـــنْ
كـــل دربٍ لـــه - وإن طـــال - غَايـــه

ثم يخاطبُ الفرنسيين الذين عبثوا بالحق، وداسوا الكرامة، ليقولَ لهم إن هذا الحق لا بـد أن يظهـر، مهما أمعنوا في التضليل، ومهما خبا نورُ هذا الحق:

أيهـــا العـــابثونَ بـــالحقِ مهـــلاً
إن للحـــق ألـــفَ جـــيش ورايـــهْ
حَرَسَـــتْهُ عنايـــةُ الله مَمـــا
يتمنـــى لـــه خصـــومُ العنايـــه
إن خبـــا نـــورهُ لمامـــاً فلـــن يخبـــو
دوامـــاً ولـــن تطـــولَ العمايـــه

ثم يحدثنا عن الخسارة التي مني بها المسـتعمر، وكيفَ عاد في النهاية مدحوراً يجرَ أذيـالَ الخيبـة والخسْرانِ، بعد أن عاث في الأرض فساداً ما شاء لهَ أن يعيث، لأن صيحات الجهاد زلزلت رواسيَه وشلَتْ يديه، ولم يستفد من كَل مـا حشـده مـن جيـوش وأسلحة وعَتاد، وجمّع حوله من عمـلاء وأذنـاب، وادعاه من الغيرة على مصلحة الوطن:

عـــاث فـــي مـــوطني الـــدخيلُ ولكـــنْ
عـــاد بـــالخزي فـــي ختـــامِ الروايـــه
زلزلـــتْ صـــيحةُ الجهـــاد رواســـيْه
وشـــلتْ يديـــه منـــاَ رمايـــهَ
لـــم يُفـــدْ مـــا أعـــدهُ مـــن جيـــوش
وادّعـــاه مـــن غَيْـــرة ووصـــايهْ
لـــم تَفـــدْهُ ســـعايةٌ مـــنِ عميـــل
شـــرُ مَـــا يطـــبخ العميـــل ســـعايهً

لقد علمته تجارب الحياة أن ينطق بالحكمة، فهو شاعر قد حنّكه الدهر، وأمدّه بالخبرة العميقة، فكم من باطل ارتد على مروجيه، وكم من وشاية أطاحت بمن حاكوها، وخير الناس من تمسك بالحقِ وحده لأنه باقٍ، وسواهم حثالة لا خير فيها:

يذهبُ البُطْلُ بالذين استغلوه
وتجني على الوشاة وشايه
صفوةُ الناسِ من تمسكَ بالحقِ
ظهيراً.. وما عداهم نفايه

ثم يلتفت إلى أولئك الذين خاضوا غمار الموت فعلاً، وتطهروا بنيران المعركة، ليقولَ لهم إنكم وحدكم موئل الرجاء ومحط الأمل لحماية الملايين التي تنظرُ إليكم بلهفة وشوق، وإنكم النجوم التي تضيء دروب المستقبل للسارين والضائعين:

يا حماةَ الديارِ مرحى لأنتمْ
خيرُ من تُرتجى لديه حمايهْ
أينَ من خاضَ غمرةَ الموت ممن
خاضها في رسالة أو حكايه
قد زرعنا رجاءَنا في ثراكم
فاجعلوا غايةَ المطاف بدايه
أنتمُ نجمةُ الصباح لساري
نَ وأنتمْ للضائعينَ هدايه

وأخيراً يبعث بتحيته من وراء البحار إلى كل من نجا من معركة الشرف والبطولة، ويطلب من الله أن يجْزِلَ ثوابَ من مات فيها:

أجزلَ اللهُ أجرَ من مات منكمْ
ورعى السالمينَ خيرَ رعايه!

وكما ربط باقي الشعراء بين الجلاء وفاجعة ميسلونَ التي فجرت ثورةَ الجلاء فيما بعد، كذلك فعلَ شاعر غَلْواء، فقد مجّد شهيدهاَ، وبارك صمودَهُ واستبساله، ولا سلاح معه غير إيمانه المطلق بعدالة قضيته، وحق وطنه بالحياة العزيزة الكريمة:

يا راقداً في ميسلونَ سقى
بدمائه حريةَ العربِ
للهِ وقفتُكَ التي جعلتْ
صغرى الهضابِ أميرةَ الهُضُبِ
جالدتَ بالإيمانِ تطلقهُ
ناراً بوجهِ الجحفلِ اللجبِ
لم تلْقَ بالاً للألى زعموا
أن العنادَ مطيةُ العطبِ

ثم يخاطب قبره الرابض في ميسلون، فيقول إنه أشبه بمحراب يلوذ به المؤمنونَ، ليتبركوا منه، أما تمثاله الشامخ بعنفوان إلى السماء، فإنه يحوم حوله بالنجوى، ليستمد منه الوحي، والإلهام.. تنظر إليه الشمس خاشعة، وتغضُّ السيوف طَرْفَها خجلاً من شجاعته:

مثواكَ محرابي أطوفُ به
وأحوم بالنجوى على النُصبِ
ترنو إليكَ الشمسُ خاشعةً
ويَغُضُّ طَرْفُ الصارمِ الذرِبِ

لقد جلا من صرعوا يوسف العظمة، وغابوا في مطاوي النسيان، إلا أنه سيظلُ خالداً على مر الأجيال وتوالي العصور، يحكي الأجداد للأحفاد أخبارَ بطولته المشرّقة:

ذهبَ الألى صرعَتْكَ رميتُهُم
وبقيْتَ فوقَ مدارجِ الحُقُبِ
يا قاهراً بالموتِ باطلَهُمْ
آبَ الغزاةُ إلى الحمى فأبِ

قلت في بداية هذه المحاضرة إن ما قيل في الجلاء من قصائد يؤلف ديواناً ضخماً، ولا أزعم أنني أحطت بها كلها، وحسبي أكون قد سلّطت الضوء على أشهر هذه القصائد، ونوهت بها وبقائليها، لكن ثمة قصائد لا تقل عنها روعة لشعراء لا ينتمون إلى سورية جغرافياً، بل ينتمون إليها قلباً وعاطفة وهوى، هزتهم فرحة الجلاء، فسطروا الفرحة شعراً، كالقروي وفرحات ومحمد علي الحوماني، أرجو أن أعود إلى قصائدهم في مناسبة أخرى.




الرجلُ المُستَعمِر..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

يحتلُّني حُبّكَ من الجِهاتِ الأَربعْ

ويرفَعُ راياتِهِ على أقاليمِ أُنوثتي

جزيرةً... جزيرةْ

وضَفيرةً... ضَفيرةْ

أيُّها الحاكمُ بِلا مراسيم، ولا بَرْلمان... ولا

استفتاءٍ شعبيّ

أيها الاستعماريُّ الكبير...

يا أجملَ البَرابرَة...

وأعْدَلَ الطُّغاةْ

أحبّكَ... وأعرفُ أنكَ مُغْتصِبٌ للسُّلطَهْ







أحبّكَ... وأعرف لا شرعيةَ احتلالكَ

أحبّكَ... وعرف عبثيّةَ الصراعِ معكْ

ومع هذا...

لا أطالبُ بِخلْعكَ عنِ العرش...

لأنني لا أعرفُ أنْ أحكمَ وحْدي...

إنّ كلَّ الكتُب يمكِنُ أن يَنتهي الإنسانُ منْ

قراءتها... إلا كتابَك... فكُلما تصوَّرْتُ

أنّني نجحْتُ في الامتحان، رجعتُ إلى

أولِ السطر...

أنتَ مثلُ غاباتِ أفريقيا كلَّما تَغَلْغَلْتُ في

مجاهيلِك... وسبحتُ في أنهارك...

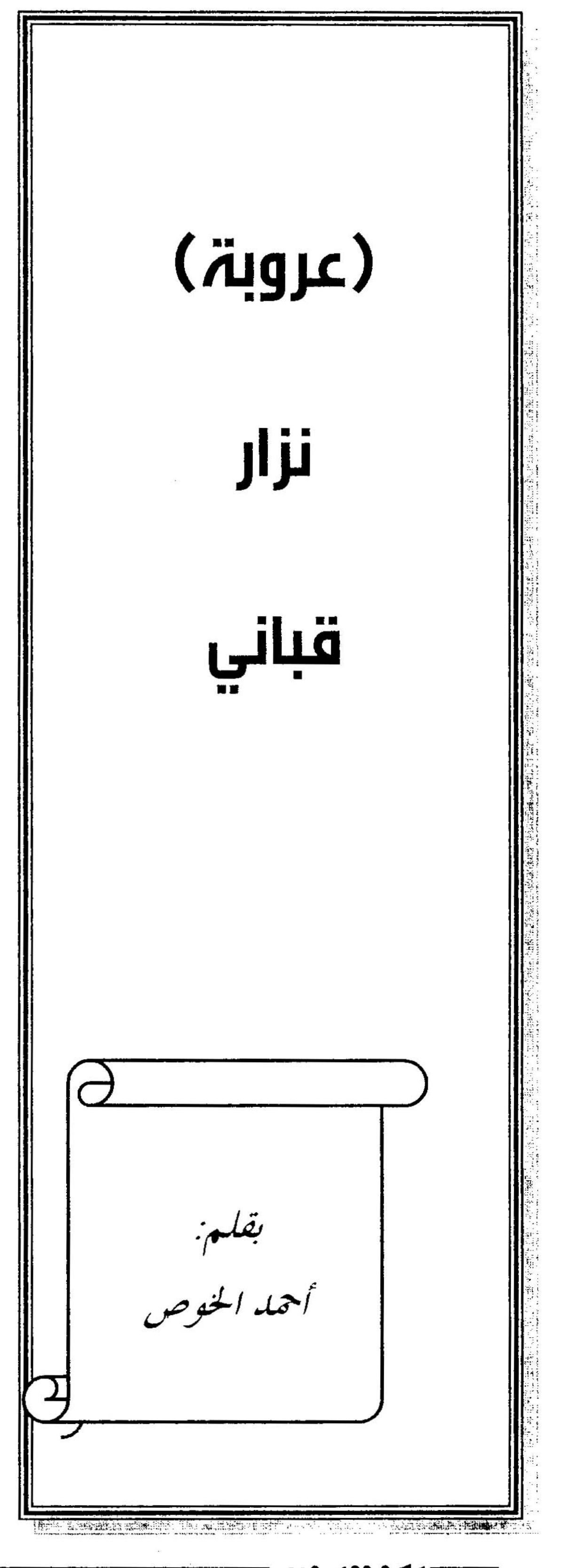
وغرقتُ في أمطارِ حُبّك... أكتشفُ أنني

لم أزَلْ في أوّلِ الطريق...

أنتَ يا أيّها المتجذّرُ في الزمانِ والمكان

ساعدْني كي أقتلِعَكَ من ذاكرتي.



كنت كلما اقتربت من واجهة مكتبة فيها ديوان لنزار قباني ابتعدت عن هذه الواجهة، وإذا ما رأيت شخصاً يقرأ نزار قباني في أحد دواوينه نصحته أن يترك الديوان، لأن نزاراً شاعر المرأة المترفة المدللة التي تروي نزواته، وترضي غرائزه، ولم يتناول نزار في شعره المرأة العاملة، والمرأة المستضعفة، والمرأة الفقيرة، وتذكرت وقتئذ أن سقراط كان مفسد أخلاق الشباب في القديم، وهاهو نزار قباني مفسد أخلاق الشباب في هذا العصر، ولا سيما أنه عاش مرفهاً مدللاً.

وظلت هذه الفكرة تراودني حتى تصفحت أحد دواوين نزار قباني وقرأت منه قصيدة «خبز وحشيش وقمر» هذه القصيدة التي أثارت مجلس النواب السوري فحكم عليها أحكام جائرة، والقصيدة في مضمونها نقد لاذع للأوضاع السائدة في الوطن العربي من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه والتي يقول فيها:

ما الذي عند السماءْ؟
لكسالى ضُعَفَاءْ.
يستحيلونَ إلى موتى إذا عاشَ القَمَرْ.
ويَهُزُّونَ قبورَ الأولياءْ
علّها ترزقُهُمْ رُزّاً.. وأطفالاً.. قبورُ الأولياءْ
ويَمُدُّونَ السجاجيدَ الأنيقات الطُرَرْ..
يتسلّونَ بأفيونٍ نُسَمِّيهِ قَدَرْ
وقضاءْ..
في بلادي، في بلادِ البُسَطَاءْ..

ولما حلت النكسة نكسة حزيران عام ١٩٧٦م، حزن نزار قباني على ما أصاب أمته من هزيمة وذل ومهانة، واعترف لأول مرة أنه تحوّل من شاعر حبٍّ وحنين إلى شاعر يكتب بالسكين حيث قال:

يا وَطَني الحزينْ
حَوَّلتَني بلحظة
من شاعرٍ يكتُبُ شِعْرَ الحُبِّ والحنينْ
لشاعرٍ يكتُبُ بالسِكينْ..

تُرى ما هي هذه السكين التي كتب بها نزار شعره؟ وما نوع الحرف الذي ذبح فيه الجهل والتأخر والهزيمة؟ ولمصلحة من فعل هذا أو ذلك؟ تلك أسئلة ترددت في ذاكرتي منذ أن حلت النكسة التي ترجمها بقصيدته الأولى حيث تناول فيها مشاكل الوطن العربي، فقد تلمّس معاناة شعبه، ووضع يده على مكامن الألم والضعف، ووصف العرب بأنهم أمة الكسالى، تعيش أحلاماً، وتمضغ قدرية، وترتجي خرافات، ثم راح يصبّ جام غضبه على شرقه الغارق في الأحلام، والترهات والكلام الأجوف والخطابة الرنانة، يقول نزار مشيراً إلى ذلك في قصيدة «هوامش على دفتر النكسة»:

خمسةُ آلاف سَنَهْ..
ونحنُ في السرْدابْ
ذُقُونُنا طويلةٌ
نُقودُنا مجهولَةٌ
عيونُنا مرافئ الذُبابْ..
يا أصدقائي:
جَرِّبُوا أن تكسروا الأبوابْ
أن تغسلوا أفكارَكمْ
وتغسلُوا الأثوابْ
فالناسُ يجهلونكمْ
في خارج السرْدَابْ
الناسُ يَحسَبُونَكُمْ
نوعاً من الذئابْ...

ويوزع نزار عشقه وحبّه لكل ذرة من تراب الوطن العربي ولكل بقعة يتراءى فيها مجد العرب وعزّتهم ومنعتهم، وأول ما يذكر في هذا المضمار حبُّه للشام مسقط رأسه التي عاش في أحضانها، بين ياسمينها وفلها وورِدها الجوري في دمشق الخالدة أقدم مدن العالم، وأقدرها على البقاء، فهي كما جاء في الحديث النبوي الشريف: (الشام كنانتي من أرادها بسوء، ضربَهُ الله بسهم من نار) فيقول نزار في دمشق مهد الحضارة وعبق التاريخ في قصيدته «استجواب»:

هل واحدٌ من بينكُمْ..
يعرفُ أينَ الشامْ؟
هل واحدٌ من بينكُمْ..
أدْمَنَ سُكْنَى الشامْ؟
رواهُ ماءُ الشامْ..
كواهُ عشْقُ الشامْ..
تأكَّدُوا يا سادتي
لن تجِدُوا في كلِّ أسواق الورود،
وردةً كالشامْ
وفي دكاكين الحُلَى جميعها..
لؤلؤةً كالشامْ
لن تجِدوا..
مدينةً حزينةَ العَيْنَيْنِ مثل الشامْ..

وفي شامة دنيا العروبة، امتداد الماضي بالحاضر في حضارتنا وتاريخها ومدنيتها، وفي مياهها العذبة وأشجارها السامقة الوارفة الظلال، يقول نزار في قصيدته «موّال دمشقي»:

قُلْ للذينَ بأرضِ الشامِ قد نَزَلُوا
قتيلُكُمْ لم يَزَلْ بالعشق مقتُولا..

يا شامُ. يا شامة الدُنْيا، وَوَرْدَتَها
يا مَنْ بحسنكِ أوجَعْتِ الأزاميلا

يا بَلْدَةَ السَبْعَة الأنهارِ.. يا بَلَدي
ويا قميصاً بزَهْرِ الخوخ مَشْغُولا

هواكَ يا بَرَدى، كالسيف يسكُنُني
وما ملكتُ لأمرِ الحُبِّ تبديلا

يا شامُ. إنْ كنتُ أُخفي ما أُكابدُهُ
فأجملُ الحُبِّ حُبٌّ - بَعْدُ - ما قِيلا...

وهاهو ذا نزار قباني يشارك العرب في مصر، وهم يصدّون عدواناً غاشماً يريد أن يذل شعباً يعتز بعروبته، ويسير قدماً من نصر إلى نصر، من

خلال قصيدة تتضمن أربع رسائل من جندي في بور سعيد إلى والده، يصف في هذه القصيدة المواجهة الحاسمة بين قوى الشر وأصحاب الحق، فيقول في رسالته الأولى:

إنّي أراها يا أبي، من خندقي،
سُفُنَ اللُصُوصْ
محشودةً عند المضيقْ
هل عادَ قُطَّاعُ الطريقْ؟
يتسلَّقُون جدارَنا..
ويُهدِّدونَ بقاءَنا..

وفي الرسالة الثانية، يروي نزار على لسان الجندي المصري إنزالاتِ العدو خلف خطوط المقاتلين كالجراد والغربانَ، فيقول:

هَبَط المظلّيُّونَ خلفَ خُطُوطنا..
أمْرٌ جديدْ..
هبطوا كأرتالِ الجَراد،
كسِرْبِ غربانٍ مُبيدْ..

وعلى الرغم من قوة العدو وصلفه وكثرة مقاتليه، فقد استطاع الجنود المصريون أن يحققوا مهمتهم في سحق العدو، وحصد المظليين فيقول نزار:

.. الآنَ.. أفْنَيْنَا فُلُولَ الهابطينْ
أبَتَاهُ،
لو شاهدتَهُمْ يتساقطونْ
يتأرجحونْ..
تحتَ المظلاّت الطعينة
مثلَ مشنوقٍ تَدلّى في سُكُونْ..

ويستمر الشاعر في وصف كفاح الشعب العربي في مصر، وزج الجميع في أتون هذه المعركة جندياً وفلاحاً وطفلا، يقاتلون عدوهم بالسكين والفأس والحجر، يقول نزار:

لم يبقَ فلاّحٌ على محراثه، إلاّ وجاءْ...
لم يبقَ طفلٌ، يا أبي، إلاّ وَجاءْ..
لم يبقَ سكينٌ.. ولا فأسٌ.. ولا حجرٌ على كتفِ الطريق، إلاّ وَجاءْ..

وينهي نزار رسائل الجندي الأربع من بور سعيد مكللة بالنصر، مفعمة بالعزة والكرامة بقوله:

هذي الرِسالةُ، يا أبي، مِن بور سعيدْ
من حيثُ تمتزجُ البطولةُ بالجراح وبالحديدْ
مِنْ مصنع الأبطال أكتبُ يا أبي..
مِنْ بور سعيدْ..

ويمضي الشاعر قدماً في تصوير الانتصارات العربية والبطولات الفردية التي حققت المعجزات، فها هو نزار ينتقل إلى بلد المليون شهيد إلى الجزائر الأبية ليسجّل انتصاراً آخر في شخص امرأة مناضلة تحدّت جبروت المستعمر الفرنسي الغاصِب، ونالت من كبريائه حين لم تأبه للتعذيب والقهر اللذين أنزلا بها، فيقدم لنا هوية هذه البطلة ويصف شجاعتها، فيقول:

الإسمُ: جميلةُ بو حَيْرَدْ
تاريخٌ ترويه بلادي
يحفظهُ بعدي أولادي
تاريخُ امرأة من وطني
جَلَدَتْ مقصلَةَ الجلاد..
إمرأةٌ دَوَّخت الشمسَا
جرحَتْ أبعادَ الأبعاد
ثائرةٌ من جبل الأطلَسْ
يذكرُها زَهَرُ الكَبَّاد..
ما أصغرَ (جانْ داركْ) فَرَنْسا
في جانب (جانْ داركْ) بلادي..

ولمّا نزلت الكارثة بالعرب كارثة الهزيمة في حزيران، أدمى الحزن قلب نزار، فثارت ثائرته، ورفض واقع شرقه المتخلف الذي يقول أكثر مما يفعل، وطلب من قومه أن يتحرروا من كل التقاليد

الرثة البالية، ويكسروا أبواب الجمود وينهلوا من منابع العلم والمعرفة، ويشدّوا الأيدي للعمل والبناء الجاد الذي يعطي الدفع ويرفدُ الاستمرارية في التقدم للحاق بمصاف الدول المتحضرة، ويأخذوا أحسن ما عندهم بالفعل والعمل لا بالقول والخطب، إذا ما أراد العرب أن يرفعوا عار الذل عنهم، ويستردوا عزتهم وكرامتهم، وينتصروا على أعدائهم، فيقول نزار:

يا أصدقائي:
جَرِّبُوا أن تكسروا الأبوابْ
أن تغسلوا أفكاركمْ..
يا أصدقائي:
جَرِّبُوا أن تقرؤوا كتابْ..
أن تكتبُوا كتابْ..
أن تزرعُوا الحُرُوف..
والرُمَّانَ..
والأعْنَابْ..

والشاعر حين يدعو أمته إلى كسر الجمود وفك القيود، وتغيير الواقع يبين لهم أسباب الهزيمة الأساسية أيضاً، فهي في رأيه التفرّق والتشرذم، ووأد الوحدة أينما نمت، وتمزيق جسمها بحراب المستعمرين والانفصاليين، وتكريس واقع التجزئة، فيقول نزار:

لو أنَّنا لم ندفن الوحدةَ في التُرَابْ
لو لم نُمزِّقْ جسمَها الطريَّ بالحرابْ
لو بَقِيَتْ في داخل العيون والأهدابْ
لما استباحتْ لحمَنا الكلابْ..

لقد وضع نزار قباني الهزيمة على بساط البحث وأشبعها دراسة وتمحيصاً وبيّنَ أسبابها، ووضع نقاط الحل على حروف المشكلة التي عاشتها أمتنا، ولم يكتف بذلك بل طلب منها خلق جيل جديد، جيل ساخط على كل ضعف وذل، جيل يفتح آفاقاً جديدة، متمسكاً بتاريخه العريق، يوقظ في نفوس أبنائه بطولات خالد وأبي عبيدة وطارق بن زياد وصلاح الدين، ويظهر لهم عبقريات علمائهم أمثال: ابن رشد والرازي وابن سينا والفارابي، جيل لا يعرف التملق ولا يسمح بالخطأ، فهو يريد جيلاً رائداً عملاقاً، يقول في القصيدة نفسها:

نُريدُ جيلاً غاضباً
نُريدُ جيلاً يَفْلَحُ الآفاقْ
وينكُشُ التاريخَ من جُذُورِه
وينكُشُ الفكْرَ من الأعماقْ
نريدُ جيلاً قادماً مختلفَ الملامحْ
لا يغفرُ الأخطاءَ.. لا يُسامِحْ
لا ينحني.. لا يعرفُ النفاقْ..
نريدُ جيلاً، رائداً، عملاقْ..

وأين هذا الجيل الذي ينشده نزار؟ أين تراه يكون؟ أهو مطلب صعب المنال، أم يمكن الوصول إليه ببساطة ويسر؟ فها هو نزار يعطينا مرة أخرى الجواب سهلاً شافياً معقولاً، فيقول في آخر هذه القصيدة:

يا أيُّها الأطفالْ:
من المحيط للخليجِ، أنتُمُ سنابلَ الامال
وأنتُمُ الجيلُ الذي سيكسرُ الأغلالْ
ويقتُلُ الأفيونَ في رؤوسِنا
ويقتُلُ الخيالْ..

* * *

يا أيُّها الأطفالْ:
يا مَطَرَ الربيعِ يا سنابلَ الآمالْ
أنتُمْ بذورُ الخصْبِ في حياتنا العقيمَهْ
وأنتُمُ الجيلُ الذي سيهزمُ الهزيمهْ..

ولقد هزّ موت الرئيس جمال عبد الناصر الشاعر نزار هزّاً عنيفاً كيف لا؟ وهو أمل الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج، وهاهو يناديه كي يعود سريعاً ليرى الأعداء من الشرق والغرب يحاصرون قومه ويكيدون لهم، فيقول نزار في قصيدته «اليوم في عيد ميلاده»:

رفيق صلاحَ الدين.. هل لكَ عودةٌ
فإنَّ جيوشَ الروم تَنْهَى وتأْمُرُ

رفاقُكَ في الأغوار شَدُّوا سُرُوجَهُمْ
وجُنْدُكَ في حِطّينَ، صلّوا.. وكبَّروا..

تُغَنِّي بكَ الدُّنيَا.. كأنَّكَ طارقٌ
على بَرَكاتِ اللهِ، يَرْسُو.. ويُبْحِرُ

تعالَ إلينا.. فالمُروءاتُ أطْرَقَتْ
وموطِنُ آبائي زُجاجٌ مُكَسَّرُ..

هُزِمْنَا.. ومازلنا شَتَاتَ قبائلٍ
تعيشُ على الحقدِ الدفين وتَثْأَرُ

يحاصرُنا كالموت ألْفُ خليفةٍ
ففي الشرق هولاكو.. وفي الغربِ قَيْصَرُ

والأمل الذي تبدد بموت جمال رحمه الله عاد للظهور من جديد في شخص السيد الرئيس حافظ الأسد بطل تشرين التحرير، تشرين الذي زفّ البشرى بالنصر المؤزّر، وحطم أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وأنزل العنقاء من عليائها، وهوى بها إلى الحضيض، ومع إطلالة شمس تشرين تطل عذوبة ورقة كلمات نزار التي هجرها منذ سبع سنوات، جديدة رقيقة حالمة، تضج في حناياها تعابير الحب والحنين، وهاهو ذا يخاطب دمشق حبيبته العتيقة باسم «ميسون»، يخطب ودّها، وهي بنت الأكرمين، فيقول في قصيدته «ترصيع بالذهب على سيف دمشقي»:

أتراها تحِبُّني مَيْسُونُ؟
أمْ تَوَهَّمْتُ.. والنساءُ ظُنُونُ

يا ابنةَ العَمِّ، والهوى أُمَوِيٌّ
كيف أُخفي الهوى، وكيفَ أُبِينُ

ها هي الشامُ، بعد فرْقَةِ دهرٍ
أنهُرٌ سبعةٌ.. وحُورٌ عِينُ

جاءَ تشرينُ.. يا حبيبةَ عُمْري
أحْسَنُ الوقتِ للهوى تِشْرِينُ

* * *

رضِيَ اللهُ والرَسُولُ عن الشامِ
فنصْرٌ آتٍ.. وفتحٌ مُبِينُ..

وقَتَلْنا العَنْقَاءَ في (جَبَلِ الشَيْخِ)
وألقى أضراسَهُ التِنِّينُ

إن نزاراً يعتبر أن ميلاده يوم السادس من تشرين يوم الانتصار العربي في عصرنا الحديث على قوى الاستعمار والصهيونية فيقول نضال نصر الله:

«وحين جاء انتصار تشرين وعادت القنيطرة مُحرَّرة إلى منزلها القديم وجاء معها فجرٌ عربيٌّ مشرق أعاد لنا شموخنا وكبرياءنا».

عَدَّ نزار قباني السادس من تشرين تقويماً جديداً للكرامة العربية وأنه باستطاعة أي عربي إلغاء التقويمين الميلادي والهجري واعتبار السادس من تشرين مولد الإنسان العربي وتاريخه.

ولم يكن انتصار تشرين انتصاراً مفاجئاً للأمة العربية، بل هو نتيجة عمل دؤوب ونضال مستمر من سورية العروبة بقيادة القائد الخالد حافظ الأسد بطل هذه الحرب، وقد أظهر نزار ذلك عندما تحدّث عن الجندي السوري وهو يدافع عن بوابة العروبة، فقال نضال نصر الله في كتابه «قصائد كانت ممنوعة» في هذا المضمار:

وبقي الجندي السّوري شامخاً مدافعاً عن بوابة العروبة عن دمشق الشّام حلم الأجيال العربيّة وهو يمسك بقبضته القويّة جمرة الصّدق والحق لصون تراب الوطن، تروي دماء جنودنا البواسل أرض الوطن. فيقول نزار قباني بعدما بقيت دمشق صامدةً وحدها بوجه العدوّ الغاصب:

«٨٢ يوماً والشّام تكتب إلياذتها العظيمة
على الصّخر
والثلج بحروف كبيرة

٨٢ يوماً والشّام تُسَدِّدُ وحدها كُلَّ ديون العالم العربي المستحقّة منذ عام ١٩٦٧ وعام ١٩٤٨، ولا تطلب من المديونين جزاءً ولا شكورا:

لقد حاربت الشّام واستحقّت ثواب حربها
هذه هي سورية
كانت في الحرب أستاذه
تتكلّم بالعربي الفصيح»

ويتابع نزار تطورات الأحداث في بلاده لحظة لحظة، فيفرح بكل نصر، ويحزن ويسخط لكل هزيمة، فهو كأي مواطن عربي يُفاجأ كما فوجئ كل فرد في وطننا الكبير باتفاقيات «كامب ديفيد» التي حولت النصر العربي إلى تخاذل واستسلام، لم وكيف كلما ارتقت أمتنا في معارج النصر والعزة والكرامة، سرقوا نصرها، وحولوه إلى مأساة، وكبّلوها من جديد بالحديد؟ وتبدو نبرة الحزن والأسى في كلمات وتعابير قصائد نزار، حين يجسّد هذه الواقعة المرّة، فيقول في قصيدته «مرسوم بإقالة خالد بن الوليد»:

سَرَقوا منّا الزمانَ العربيْ
سَرَقُوا فاطمةَ الزهراءَ من بيت النبيْ
يا صلاحَ الدينِ،
باعوا النسخةَ الأولى منَ القرآنِ،
باعوا الحزنَ في عينيْ عليْ..
كشفوا في أُحُد ظهرَ رسولِ الله..
باعوا الأنهرَ السبعةَ في الشّامِ،
وباعوا الياسمينَ الأمَويْ..
يا صلاحَ الدينِ،
باعوكَ، وباعونا جميعاً..
في المزاد العَلَنيْ..
سَرَقُوا منّا الطموحَ العربيْ
عَزَلوا خالدَ في أعقاب فَتْح الشامِ،
سمَّوهُ سفيراً في جنيف،
يلبسُ القُبَّعَةَ السوداءَ..
يستمتعُ بالسيجار.. والكافيار..
ثمّ هلْ جاءَ زمانٌ؟.
فيه نستقبلُ إسرائيلَ بالوردِ.. وآلافِ الحمائمْ
والنشيد الوطنيْ..
لمْ أعُدْ أفهمُ شيئاً يا بُنَيْ..
لمْ أعُدْ أفهَمُ شيئاً يا بُنَيْ..

وقد شنّ نزار قباني هجوماً قاسياً على الوطن العربي وعلى المفكرين العرب فقال:

«نحن كجيل منتهون، هناك أملٌ إذن أن أنادي بالبذور القادمة وهم الأطفال، خذ الكتّاب العرب ثلاثة أرباعهم مع السّلطة، ثلاثة أرباعهم يتعاملون مع مجلات وصحف معروفة مصادر تمويلها، ونصف الكُتّاب العرب يقولون ربع الحقيقة والثلاثة أرباع الباقية يُغيّبُونها. أنا أشمُّ رائحة النّفط بكل الكتابات الصّحفية التي تصدر في أوروبا».

وقال نزار أيضاً:

«هل ماتت الحساسيَّة العربيَّة أو الإحساس القومي، الصّمت مطبق، والسبب الحُكْم البوليسي والحكم الفردي، الديمقراطيَّة مهروسة، الليبراليَّة مهروسة، حرية الرأي مهروسة، إنّني لا أتصوَّر مرحلة عربيَّة مرَّت في تاريخنا العربي بمثل هذه البشاعة» .

ويستمر نزار موضحاً للقارئ العربي أن هجومه على الشعب العربي لا يفسد الودّ بينهما فيقول:

«.. القسوة على الجمهور العربي لا تُفسد ما بيني وبينه من علاقات طيبة، تماماً كما يحدث في الحياة الزّوجيّة، حيث تصل العلاقة بين الزّوجين إلى حد استعمال الأظافر وسكاكين المطبخ، ولكنهما في آخر الليل ينامان مع بعضهما في سرير واحد.. ويستمرّان في إنجاب الأطفال.

ثم من قال لك إنّ الجمهور العربي لا يحبُّ القسوة.. ولا يحبُّ من يحكُّ له جلده.. ولا سيما إذا كانت القسوة تنطلق من موقع الحبِّ الكبير.

وإذا سألتني من يقرأ كتاب «قصائد مغضوب عليها» فسأجيبك أن الذي يقرؤني هو الشعب العربي.. لا شعب الأسكيمو.. ولا شعب تنزانيا.. ولا شعب فولتا العليا.

ولمعلوماتك أقول لك إنَّ «قصائد مغضوب عليها» سَجَّلَ - رغم منع دخوله إلى أكثر الدّول العربيَّة - توزيعاً خرافياً إذا قيس ببقيَّة كتبي.

فالشعب العربي يبحث عن كلمةٍ صدق ولو كانت جارحة، ويرفض شعر الغش والنّفاق ومسح الجوخ.. مهما كان جميلاً.

إنّ صلتي بالجماهير العربيَّة عظيمة.. عظيمة. وليس الاستقبال الرّائع الذي قابلني به الشّعب الأردني قبل أسبوعَيْن، وقبل ذلك استقبال الشّعب المصري لقصائدي المغضوب عليها.. سوى شهادة على أنَّ الشّعر المطلوب في هذه المرحلة، ليس شعر المساومة والمجاملة، وإنّما هو شعر المصادمة والتّحدِّيات.

وإذا كان الشّعب قد أصابه بعض «طراطيش» من كلامي.. فلأنَّني أعتبر أنَّ سكوته الطويل على ظلم الظّالمين، وقمع القامعين، ساعد على إطالة عمر السّلطان.. وأعطاه الإحساس بأنّه شعبي جداً.. و «مهضوم جدّاً» وأن الجماهير لن تفتح فمها مادام يُقدّم لها رزمة البرسيم اليوميَّة.

إنّ الشّعب ليس نصّاً مقدّساً لا يمكن نقده أو المساس به، ولكنّه أرض ثوريَّة يمكن للشّاعر أن يزرع في أحشائها ما يريد من بروق، ورعود، ومتفجرات..».

ولما اشتدّ أوارُ الحرب الأهلية في «لبنان» بلد الحرية والجمال، نعى نزارَ «بيروت» الجريحة الذبيحة «بيروت» حبّه الثاني «بيروت» الرقة والعصفور المغرّد، واللؤلؤ والطاووس، فيقول متفجعاً في قصيدته «يا ست الدنيا يا بيروت»:

يا ستَّ الدنيا يا بيروتْ...
مَنْ بَاعَ أساورَك المشغولةَ بالياقُوتْ؟
مَنْ صادرَ خاتمَكَ السحريَّ،
وقصَّ ضفائرَكِ الذهبيَّهْ؟
من ذَبحَ الفَرحَ النائمَ في عينيكِ الخضراوينْ؟

ويستغرب نزار من التغيّر والتحوّل المفاجئ الذي أصاب «بيروت» الحورية الرقيقة، ويقول لها:

منْ أينَ أتتْك القَسْوَةُ يا بيروتُ،
وَكنت برقَّة حُوريَّهْ..
لا أفهَمُ كيفَ انقلبَ العُصْفُورُ الدُوريُّ..
لقطّةِ ليلٍ وحشيَّهْ..

ثم ينادي نزار «بيروت» باسم الحب والشعراء والخبز والفقراء، أن تقوم من محنتها من أجل محبّيها، فقد دفعت ضريبة حسنها، كما دفعت الجزية عن حريتها، فيقول:

قُومي من أجل الحُبِّ، ومن أجل الشعراءْ
قومي من أجل الخبز، ومنْ أجلِ الفقراءْ
الحبُّ يريدُك.. يا أحلى الملكاتْ..
والربُّ يريدُكِ، يا أحلى الملكاتْ
ها أنت دفعتِ ضريبةَ حسنكِ
مثلَ جميع الحسناواتْ
ودفعتِ الجِزْيةَ عن كُلِّ الكَلِماتْ..

ثمَّ يقول نزار قبّاني:

«العروبة ليست لفظاً رمزياً أو تجريديّاً أو ذهنيّاً، العروبة هي العرب. فإذا كبروا كبِرت، وإذا صغروا صغُرت، وإذا تعملقوا تعملقت، وإذا تقزَّموا تقزّمت، وإذا ماتوا متُّ، العروبة هي فعل والتزام وممارسة. ونحن لا نفعل للعروبة شيئاً، ولا نلتزم للعروبة شيئاً، ولا نلتزم بها، ولا نمارسها».

«العروبة خطٌّ بياني يصعد ويهبط، مثل كلّ الحضارات وكلّ الإمبراطوريات. فإذا كانت روما قد تحوّلت من وطن ليوليوس قيصر إلى وطن «الإسباجيتي والبيتزا»، وإذا كانت أثينا قد تحوّلت من مدرسة لتعليم المعرفة إلى دكّان يبيع البسطرما والجبن.. فلماذا تغضب إذا تجاوز شاعر عربي الخطّ الأحمر».

ولطالما كانت العروبة هاجس نزار الأكبر: أمّة مقسّمة، دويلاتٌ صغيرة، حواجز تفتيش، نعجة مذبوحة وحاكم قصّاب عالم يرهن سلاحه ويبيع شرفه، ماتت النخوة العربية، ومات التاريخ العربي، وهاهو ذا نزار يخاطب تونس الخضراء، ويشكو همّه إليها، ويبثها أحزانه، فيقول في قصيدته «أنا يا صديقة متعب بعروبتي»:

أنـا يـا صـديقةُ مُتْعَـبٌ بِعُرُوبتـي
فهـل العروبـةُ لَعْنَـةٌ وعِقـابُ؟

أَمْشـي علـى وَرَق الخريطـة خائفـاً
فعلـى الخريطـة كلنـا أغْـرابُ..

لـولا العبـاءاتُ التـي التفُّـوا بهـا
مـا كنـتُ أحسَـبُ أنهُـمْ أعـرابُ..

يتقـاتلون علـى بقايـا تَمْـرَةٍ
فخنـاجرٌ مرفوعـةٌ وحِـرابُ

يـا تـونسُ الخضـراءُ.. كأسـيَ علْقَـمٌ
أَعَلَـى الهزيمـةِ تُشْـربُ الأنخـابُ؟

وخريطـةُ الـوطن الكبيـرِ فضـيحةٌ
فحـواجزٌ.. ومخـافِرٌ.. وكِـلابُ..

والعـالمُ العربـيُّ.. إمّـا نَعْجَـةٌ
مذبوحـةٌ، أو حـاكمٌ قَصَّـابُ

* * *

ماتَـتْ خيـولُ بنـي أميَّـةَ كلُّهـا
خَجَـلاً.. وظَـلَّ الصَـرْفُ والإعـرابُ

فكأنَّمـا كُتُـبُ التـراث خُرافـةٌ
كُبـرى، فـلا عُمَـرٌ.. ولا خطَّـابُ

وها هي بارقة أمل جديدة تطل من أرض الشهادة والبطولة من أرض القداسة، أرض الأنبياء «فلسطين» وأي بارقة تلك؟ إنها بارقة لم يكن لها سابقة في تاريخ الكفاح ضد قوى العدوان والطغيان، أطفال في عمر البراعم، يخرجون من مدارسهم، حاملين كتبهم على ظهورهم، وجيوبهم عامرة بالحجارة، وأيديهم بالزجاجات الحارقة، وهي ألعابهم المفضلة يؤدون بها واجباً قبل واجبات الدراسة، كيف لا؟ وهم الذين خلقوا رجالاً دون أن يعيشوا عمر الطفولة يلفظون اسم الوطن قبل أن يلفظوا «بابا» و«ماما» هؤلاء هم أصحاب هذه السابقة، أطفال عُزّلٌ إلا من الحجارة والزجاجات، يقاومون بها جيشاً كامل السلاح عالي التدريب، يطالبون بحقوقهم في الحرية، والأمن والسلام، ولقد هزّت ثورة الحجارة التي قادها الأطفال العرب في فلسطين كيان نزار، وأججت مشاعره بالحب العارم فأخذ يخاطبهم في قصيدته «الغاضبون» قائلاً:

يـا تلاميـذَ غَـزَّة... عَلِّمُونـا..
بعـضَ مـا عنـدكمْ فـنحنُ نسـينا...

عَلِّمُونـا.. بـأنْ نكـونَ رجـالاً
فلـدينا الرجـال.. صـارُوا عجينـا

عَلِّمُونَـا.. كيـفَ الحجـارةُ تغـدُو
بـين أيـدي الأطفـالِ، ماسـاً ثمينـا..

كيـف تغـدُو درَّاجـةُ الطفـلِ، لُغمـاً
وشـريطُ الحريـرِ.. يغـدو كمَينـا..

كيـف مَصَّاصَـةُ الحليـب.. إذا مـا
اعتقلُوهـا تحوَّلَـتْ سَـكّينَا...

ونزار إذ يفرح بهؤلاء الأطفال، ويُكبرُ فيهم هذه الهمم العالية والشجاعة النادرة، يطلب إليهم أن يضربوا عدوهم بكل قواهم وينهاهم أن يتمثلوا الكبار الذين يحسبون لكل خطوة حساباً، يهربون من المسؤولية، ولربما كانوا في حساب القضية المصيرية موتى أو يتامى، فالكبار إلى جانب المكافحين الصغار صغاراً، يقول نزار في قصيدته نفسها:

يـــا تلاميـــذَ غَـــزَّةَ لا تُبَـــالوا..
بإذاعاتنـــــا.. ولا تســـــمَعُونَا..

اضـــرِبُوا.. اضـــرِبُوا.. بكـــلّ قـــواكُمْ
واحزِمُـــوا أمـــرَكُمْ ولا تســـألُونَا..

نحـــنُ مَـــوتَى.. لا يملِكُـــونَ ضَـــريحاً
وَيَتَـــامَى.. لا يَملِكُـــونَ عُيُونَـــا

قـــد لزمنـــا جُحُورَنـــا.. وطلبنـــا
مـــنكمُ، أن تقـــاتلوا التِنِّينَـــا..

قـــد صـــغُرْنا، أمـــامكمْ ألـــفَ قـــرن..
وكبُـــرْتُمْ - خـــلالَ شـــهرٍ - قُرُونـــاً..

وها هو ذا نزار يحيّي أطفال الحجارة الأبطـال، ويطلب من الله أن ينصرهم لتكون أيامُهم سـعيدة هانئة، فهم الشعلة التي أحييت الأمل من جديد حين خرجوا من شقوق الأرض ومن المغاور والكهوف، ليزرعوا أجمل الورود على الجراح الغائرة المثخنة بالدماء الزكية، تلك هـي الثـورة ثـورة الـدفاتر والأقلامِ، فكيف لو كانت الدفاتر سـلاحاً والأقـلام رصاصاً، ثم يطلب مـنهم أن يستمروا بنضـالهم المشرّف، ليغسلوا عار الهزائم وتخاذل الرجال، ولا يخافوا من العصر اليهودي المزعوم، يقول نـزار في آخر هذه القصيدة:

يـــا أحبَّاءَنَـــا الصـــغارَ.. ســـلاماً..
جعـــلَ اللهُ يـــومَكُمْ ياسَـــمينَا..

مـــن شُـــقُوق الأرض الخـــرابِ طلعـــتُمْ
وزرَعـــتُمْ جراحَنـــا نِســـرينَا..

هـــذه ثـــورةُ الـــدفاتر.. والحبـــر
فَكُونـــوا علـــى الشـــفاهِ لُحُونَـــا..

أَمطرُونَـــا.. بطولـــةً، وشُـــمُوخاً
واغسِـــلُونا مـــن قُبحنَـــا إغســـلُونَا..

لا تَخـــافُوا مُوسَـــى.. ولا ســـحرَ موسَـــى..
واســـتَعِدُّوا لتقطُفُـــوا الزيتونَـــا

إنَّ هـــذا العصـــرَ اليهـــوديَّ وهـــمٌ..
ســـوفَ ينهـــارُ.. لـــو ملكنـــا اليقينَـــا...

وهذا هو حال العرب، وكأنما السـنوات تعـاد والأحداث تعاد، ولكن بحال مأساوي أكثـر، أهكـذا يكافأ أطفال الحجارة على نضالهم؟ وبهـذا الـثمن البخس تباع دماء مئات الشهداء وآلاف الجرحـى، وفلسطين الذبيحة تقطَّعُ أوصالها، وسنوات النضال الطويلة، تضيع على طاولة المفاوضات وشـعارات التحرير تتبدل بشـعارات الاستسـلام والخنـوع، ويكرس الاحتلال ويعترف بشرعيته، وتؤخذ أركان دولته.

لماذا يتجدّد هذا الواقع المر؟ ولماذا يُحوَّل كـل نصر إلى هزيمة؟ لماذا يقاتل الأطفـال بالحجـارة؟ ويستسلم الكبار للمخططات التي ترسمها الـدوائر الإمبريالية؟ وهكذا بيعت فلسطين دون أن تستشار، وصارت جارية في قصـور أبنـاء داوود والـذين ساموها خسف العذاب، وأهانوا كرامتها، وطمسوا هويتها.

ولقد جسّد نزار هذه المأساة في آخـر قصـيدة كتبها بعنوان «المهرولون» فقال:

سقطت آخرُ جدران الحياءْ
وفرحْنا..
ورقصْنا..
وتباركنا بتوقيع سلام الجبناءْ..
لم يعدْ يرعبُنا شيء..
ولا يخجلنا شيء..
فقد يبستْ فينا عروقُ الكبرياءْ..

* * *

جوّعوا أطفالنا خمسين عاماً
ورموا في آخر الصوم إلينا..
بصلهْ..

* * *

تركوا علبة سردين بأيدينا..

تسمّى (غزّة)..
عظمة يابسة تدعى (أريحا)..
فندقاً يدعى (فلسطين)،
بلا سقف ولا أعمدة..
تركونا جسداً دونَ عظامْ..
ويداً دونَ أصابعْ..

ويستهزئ نزار بهرولات المتخاذلين، لأنه يعرف تماماً أن ضمير الشعب يبقى حيّاً دائماً، لا يرضى بالحلول الانهزامية، ولا يستسلم لمشيئة جلاديه، وأن هذه الحلول لا تساوي عنده خردلة، وحكمه أكبر من توقيعات «أوسلو» يقول نزار:

ما تفيدُ الهرولهْ؟
ما تفيدُ الهرولهْ؟
عندما يبقى ضمير الشعب حياً..
كفتيل القنبلهْ..
لن تساوي كلّ توقيعاتِ (أوسلو)
خردلهْ!!

ورغم أن الاتفاق قد وقع، إلا أن فلسطين لم تحضر التوقيع ولم تعترف به، فهو لا يساوي دماءَ الشهداء، ولا يؤمّن رجوع المشرّدين إلى ديارهم، كما لا يضمن لهم حقوق المواطنة.
يقول نزار في نهاية هذه القصيدة:

وانتهى العرس.. ولم تحضر (فلسطين) الفرحْ
بل رأت صورتها مبثوثة عبر كلّ الأقنية
نحو شيكاغو.. وجيرسي.. وميامي
وهي مثلَ الطائر المذبوح تصرخْ:
ليسَ هذا العُرسُ عُرسي..
ليسَ هذا الثوبُ ثوبي..
ليس هذا العارُ عاري..
أبداً.. يا أمريكا..
أبداً يا أمريكا..
أبداً يا أمريكا..

هذا هو نزار قباني عربي النسب والمولد، تجري في عروقه دماء العرب، عاش قضاياهم أينما كانوا، وتحسّس معاناتهم في غربتهم، وفضح ظالميهم، قسا على ضعفهم وخنوعهم، واستهزأ بكل معتقداتهم الفاسدة، وأرادهم أن يكونوا أقوى الأمم وأشرف الأمم وأعدل الأمم، ودعاهم أن يكونوا كأسلافهم المجاهدين والعلماء والمفكرين، الذين سادوا العالم قروناً طويلة، ونشروا فيه العلم والمعرفة والعدل.

ولم يكن نزار قباني كما زعم بعضهم يكره العرب ويشتمهم، ويمضي في تشويه سمعتهم، وينعتهم بما لا يحبون، وأنه يطرح مشكلاتهم بطرق هزلية ولا يعطي حلولاً لها، وإن أعطى حلا مناسباً، قالوا: هذا رأيه الشخصي، يريدون الانتقاص من ثوريته والتشكيك في عروبته!!

يقول نزار:

«.. إن العروبة التي تقرفص في حديقة البيت البيض.. أو على أبواب «هارودز» و«مارك اند سبنسر».. أو «تنقّط» راقصات شارع الهرم بأكداس الدولارات.. في حين يضطر سكان المحيمات المحاصرون في بيروت إلى أكل لحم القطط والفئران».

«نعم يا سيدي، قل على لساني إنّني عربي من سلالة الياسمين في حدائق غرناطة، ونصف أجدادي مدفونون في سواد العيون الأندلسيَّة. ولكنني مع احترامي لمقام سيّدنا محي الدِّين بن عربي ولمقدِّمة ابن خلدون وتجليات ابن حزم الأندلسي، فقد قرَّرتُ أن أحرق شجرة العائلة».

وإن أي منصف يقرأ قصيدة من قصائد نزار السياسية، يلمس فيها الطرح الموضوعي والصادق للقضية المتناولة، وأنه يمثل في طرحه آراء الملايين من أفراد هذه الأمة، ثم يأتي في نهاية القصيدة بحل ترضاه الملايين، وهو في ذلك إذاً يمثل رأي الأكثرية من أفراد الأمة العربية.

رحم الله نزاراً لقد كان عربياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى..



هذهِ مُهْجَتي..

شعر: مدحة عكاش

هـــذهِ مهجـــتي، فـــداءٌ لعينيْـــكِ
وهـــذا قلـــبي الـــذي عـــادَ حيًّـــا

نعمـــةٌ أنـــتِ، نظـــرةٌ منـــكِ تكفـــي
أَنْ تعيـــدَ الزمـــانَ غضًّـــاً نـــديّا

آخـــرُ الحُسْـــنِ مـــا انتهيـــتِ إليـــهِ
فاســـألي عـــن جلالـــهِ ناظريَّـــا

أنـــا أهـــواكِ، كـــلُّ طـــلٍّ بخيـــلٍ
مـــن هـــواكِ أراهُ عنـــدي ســـخيًّا

هـــذهِ مهجـــتي وعـــيني علـــى الحُسْـــنِ
حنـــانٌ إذا جلســـتِ بقربـــي

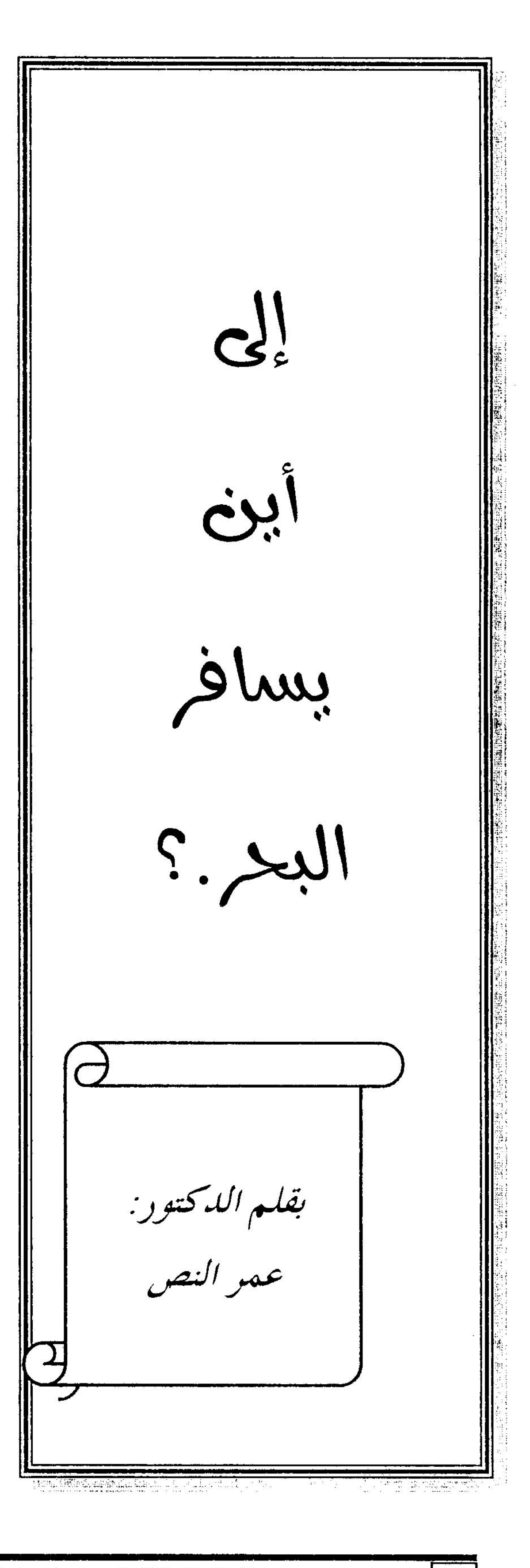
أَعيـــونٌ؟ أَمِ الملاحـــةُ ترنـــو؟
كـــلُّ دربٍ إلى المَلاحـــةِ دربـــي

شـــفةٌ مـــا أرى؟ وآمنـــتُ بـــاللِّينِ
فســـبحانَ مـــا تفـــنَّنَ ربِّـــي

مـــا علينَـــا؟ ولا علينـــا، ســـنحيَا
كـــلُّ صـــبٍّ منَّـــا يهـــيمُ بصـــبِّ







-١-

يسافر بيتي كما يسافر الموج إلى شواطئ لا أسماء لها، فأين انسللت أيها الدفء؟

الزنابق البرية تبحث عن وطن يقبلها فهل تفتحين لها صدرك الذي لم يحلم إلاّ بالبحر؟

لقد أوغلت في الدروب التي لا أعرفها وعندما سأعود منها سأقطعها مرة ثانية.

أيها العابر الذي يقف على الصخر إن الكلمات التي تنحتها عليه ستمّحي عندما يقبل موسم المطر القادم، ولكن الصيف الذي سيأتي بعده سيخترع لك كلمات أخرى لن يسلبها منك أحد.

إني أعلم أن الدفء في يديَّ سيوقد النار في الغابات التي تعترض دربي لكنني لن أترك طريقي إلى طريق سواه.

لقد علمت الغابة أن الرياح لا يمكن أن تسكت إلاّ إذا هدهدها البحر!

-٢-

البرق أضاء منزلي. لقد انحدر من السماء فسلك ألف طريق وطريق. أيتها الأمطار التي تبلل الأرض أفصحي عن الأسماء التي أعطتك إياها الغيوم. لقد تخلصت المعابد من قرابينها أما أنت فما يزال في قلبك سر لم تستطيعي الخلاص منه. إن الغربان خلعت أثواب حدادها ولكنها نسيتها على الشواطئ التي تستريح عليها أمواج البحر. يا للصفصافة المتوحدة التي ما تزال تحلم بوعودها إصرخي. لعلَّ الريح تسكت إلى الأبد.

-٣-

أنا لست أعرف، عنك شيئاً. لقد امتدت يد الريح فمحت عن المرآة ما علق بها من صور.

هأنذا أستفيق لأحلم. تغزو أذنيّ أصوات لا أعرف من أين مصدرها، وتخرج من صدري كما تخرج الصرخة العارية لتأخذ مكانها فوق التراب الذي ستمرين عليه.

أنا لست أعرف عنك شيئاً. لقد تركك الحب تتدحرجين إلى البحر كما يتدحرج الصخر. إني أقف في قلب الزعازع. تهتز النافذة. تتنهد أضلاعها ثم تنفتح لتفسح للطيوب العابرة أن تجد طريقها إلى القلب.

ويضطرب الليل ليطرد عن الأفق نجمة لم تعرف كيف تداري مللها. وتنهمر من الآفاق التي لا نهاية لها أمطار لا تذكرها الأرض.

-٤-

أبحث في رقادي عن مساحة أغرق في هوتها مخاوفي..

لعلَّ الذاكرة هي الأخرى قد رفضت أن تجد في سقوطها تلك الزهرة الحجرية التي يرتعش جسدها.

أيها التمثال الذي يولد في رحم النفق المظلم إنّ صمتك يملكنا كما تملك الغابة أريج أشجارها. لقد جئناك بالقرابين لتصفح عنا. لتقبلنا. لتتركنا نجد في مياه البحر جلودنا التي خفنا أن نلبسها.

كم درب ضاع منا ونحن نغلق أهدابنا عليه. أكانت الثمار المرة تعلم أن ليلها سوف يبدأ قبل أن ندرك أن الشمس التي كنا نحلم بها قد قتلت في الغابة العطشى.

إن أحلامنا ماتزال تشكو السهاد الذي يؤرق أعينها. فأين اليد التي تمتد إليها بالنسيان؟

-٥-

لن أرضى لزوارقي أن يقهرها الموج. إنَّ يديَّ ترتعشان وهما تمسكان بالمجاذيف ولكنهما تأبيان أن تهزما. أيتها الغائبة عن عيني لقد باح لي الزمان بالأسرار التي يخفيها فلنقف على عتبتها قبل أن يأتي الموج فيخطفها منا. إن الأشياء التي كنا نشتهيها تدني ثمارها منا. ولكن اليد التي كانت تحلم باقتطافها تتردد قبل أن تمتدّ إليها. انظري إلى هذه الطريق التي ما نزال نقطعها رغم أننا نعلم أنها لا تؤدي إلى أي مكان. لقد أضأنا الليل بالشرارات التي تتقد بين أضالعنا ثم انتظرنا من الظلمة أن تفتح ذراعيها لهذا العائد من مجاهل الغيب. أيتها الغائبة عن عيني ما الذي يحصل للبحر هذا الوجه الأبله؟ أنا وحدي أعلم أن الموج لن يقهر زوارقي.

-٦-

أفتح نافذتي لليل. أفتح نافذتي للظلال التي تقترب ثم نقف مخافة أن تُهوي إلى البحر. أيتها الظلمة التي تفتش عن أختها. أيتها الكواكب المتوحدة التي ننشر اضلاعها على جبين الليل. أيتها الكلمة التي تقفز من فم إلى فم دون أن يفهمها أحد. هأنذا أطالع الهياكل التي خلت من سدتها.

هأنذا أطالع على جدرانها المتصدعة آثار الصلوات التي قبلت فتجردت إلاّ من أصدائها.

أفتح نافذتي لليل. أصرخ بالظلمة أن تأخذني. أن تنقذني من هدير المدينة التي نسيت سيدها، أن تنقذني من الخرافة التي انتهك قناعها. أن تفتح لي الطريق إلى المجامر التي شابت عليها النار. لأخلع عليها جلدي. لأعلم منك أين هرب الرماد.

-٧-

أريد لأحزاني القديمة أن تنسكب كالنهر. إن الصاعقة التي تحمل بها الغيوم سوف تعتق السماء عندما تنطلق. يا للزمان الذي يلد يوماً بعد يوم ثم تأتي الأمطار لتمحو الآثار التي تركتها الأقدام التائهة منذ الأزل لقد هربت الظلال التي كنّا نراودها فلم يبق غير الليل يسلمنا من هوة إلى هوة.

ألم يكن الصقيع يعرف قبل أن يدهمنا أن هذه الشرارة التي نحملها لا يمكن أن تخمد. ألم نترك أصواتنا تصطدم بالمرايا دون أن تكسرها؟ لقد جاءت الكلمات الحلوة لتنقذني فلتختف كل الأشباح من طريقها.

-٨-

لن أفتح أبوابي للريح التي تنتحب وراءها. إن الخريف الذي يدبّ على الطرقات إلى بيتي يعربد كما يشاء. انظري إلى القناديل مطفأة كأنها أعين غادرتها الحياة. لكن في صدري الذي يحاول أن تصل إليه الريح غصن أخضر مازال يلهو مع الضوء.

-٩-

لماذا نعتق الرمال من شوقها إلى السراب في حين تصبح كل حبة رمل فماً يتشوّق إلى الماء؟ ألأننا نريد للأعشاب المحترقة أن تحتفظ برمادها؟ ألأننا نخاف أن يفلت الطل من بين أصابعنا فيندفق كالنهر على الطريق التي نخشى أن نعبرها؟ أيتها النار المختبئة لن أعترف بمكانك لأحد.

-١٠-

أسقط بين الحلم والحقيقة. أراود الخطأ تارة وأراود الصواب تارة أخرى. أبحث في الهياكل المهجورة عن ألفاظ نسيت معناها على جدران الصمت. يا أرضاً من غير مكان. يا دهراً من غير زمان. هذا الميناء المسكون بكل خرافات الكون يناديني. من أخبر تلك العرافة باسمي. من أنبأها أني سأهد السدّ المرفوع أمام البحر؟ إني سأفرّ بأسراري بحثاً عن أرض ألمح فيها وجهاً لا يظهر لي إلاّ في الحلم.

-١١-

ما تزال الظلال ترافقني كأنني واحد منها. قد تتأخر عني أحياناً أو تتقدمني. قد تهمس في أذني وهي تمرّ بي ثم ما تلبث أن تكلمت كأنها لم تتكلم قط. ولكنها تأتي في الخارج لتلتصق بي. لتعانقني. لتصاحبني إلى البحر.

لقد استعادت الدروب ذاكرتها منذ عرفت أن للظلال أكثر من وجه واحد. كم تقت أن أدحرج هذه الصخرة التي تعترض طريقي. كم تقت أن تختفي قبل أن أقذف بها إلى البحر. ترى لماذا تنفخ الريح في الرمال فتلتقطها أيدي الأطفال كأنها هوية من مكان مجهول؟! إني أحلم منذ ولدت بظلال لا تعرف حدوداً يقف عندها. إني أحلم منذ ولدت بفرس بيضاء تقتحم البحر فتمد الأنجم ذوائبها لتركض عليها. أتكون المصابيح قد انطفأت قبل أن تعلم أن الظلمة قد انقشعت أمامها؟ لقد رأيت على الطريق شجرة فناديتها.

قالت لي: انظر إلى أوراقي فنظرت إليها فرايتها تهاجر مر، أغصانها إلى البحر.

ثم ساد الصمت.




هي لم تعدْ تبكي من الجوع المريرْ..!!

شعر: دولة العباس

وَدِّعْ صغيرتَكَ الجميلةَ بالقُبَلْ..
وامسحْ ضفائرها بحبات المقلْ
– يا والداً – رغم الدمار وموتها
مازلت تشعرُ بالأملْ..!!
أملُ انتصارِكَ:
بالحياة وبالكفاحِ وبالعَمَلْ..!!

*　　*　　*

قدّم لها كوبَ الحليبْ..
وبعضَ أشكالِ الزبيبْ
وبعضَ ألوانِ العسلْ..!!
من قلبكَ المملوءِ بالإيمانِ
والأحزانِ والصبرِ
المعمّدِ بالحنانِ.. وبالشُعَلْ.!!

*　　*　　*

عوّضْ لها حرمانَ عام..
عن حصارٍ كالحِمامْ..!!
لعلّها تنسى صباحاتِ العذابْ
لعلّها تنسى مساءاتِ الخرابْ
وتستريح بها المُقَلْ..!!

*　　*　　*






هيَ لم تَعُدْ تبكي من الجوع المريرْ
هدأتْ.. ومثلُ هدوئها هدأ السريرْ
جاء الرصاصُ يسدُّ جوعاً في الجسدْ!!
انهمر الرصاص..
وكلُّ شيءٍ في الصغيرةِ قد همدْ..!!
فتكومتْ مثلَ الفراشة فوق نهر الجمرِ
تحلمُ بالربيع.. بالعبيرِ.. وبالفُلَلْ..!!

*   *   *

وها هيَ انطلقتْ إلى كل الدروبْ
جزلى تداعبها النسائمُ والطيوبْ

*   *   *

جزلى ترفرف بالسعادة ولهناء
(شهيدةً) حملتْها فوق أكُفِّها
- أيدي السماءِ -
إلى الخلود.. إلى الأزلْ..!!

*   *   *

ودّع صغيرتَكَ الشهيدةَ بالقُبَلْ
وامسح جدائلها بحبَّات المُقَلْ
يا والداً - غم الدمار وموتِها -
مازلتَ تشعر بالأملْ..
أمل انتصارِكَ:
بالكفاح وبالصمودِ وبالعملْ..!!

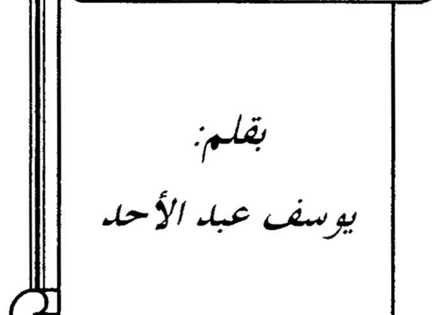



ماري عجمي

رائدة الصحافة

النسائية

١٨٨٨- ١٩٦٥



أديبة وشاعرة وصحفية ومناضلة جريئة. أصدرت مجلة العروس في كانون الأول ١٩١٠.

ولدت ماري عجمي بدمشق في الرابع عشر من أيار عام ١٨٨٨ من أسرة حموية الأصل. كان جدها تاجراً في بلاد العجم فغلب عليه لقب العجمي.

والدها عبده يوسف العجمي كان أحد أعضاء المجلس الملي الأرثوذكسي، ووالدتها زاهية جرجي يورغاكي جدها يوناني وأمها من أسرة مصابني.

تلقت دراستها في المدرستين الروسية والإيرلندية وأتقنت اللغتين العربية والإنكليزية ونالت الشهادة عام ١٩٠٣، ثم التحقت بالكلية الأميركية في بيروت سنة ١٩٠٥ لدراسة فن التمريض، إلاّ أنها لم تكمل الدراسة لأسباب صحية.

عادت إلى دمشق وعيّنت معلمة في المدرسة الروسية عام ١٩٠٦، وراسلت كبريات الصحف والمجلات السورية واللبنانية والمصرية منها: المقتبس والمهذب والإخاء والحقوق اللبنانية، ولسان الحال والحسناء.

راسلت بعض الأدباء الكبار في لبنان منهم: الأديب فليكس فارس (١٨٨٢ – ١٩٣٩) وجرجي نقولا باز (١٨٨١ – ١٩٥٩) نصير المرأة وصاحب مجلة الحسناء البيروتية.

انتقلت إلى الإسكندرية عام ١٩٠٩ وعيّنت ناظرة في مدرسة الأقباط واستمرت فيها سنة واحدة، ثم عادت إلى دمشق وأصدرت مجلة العروس في شهر كانون الأول سنة ١٩١٠ في دمشق، وهي مجلة علمية أدبية صحية فكاهية شعارها (إن الإكرام أعطي للنساء ليزين الأرض بأزهار السماء)، وكان عدد صفحاتها ٣٢ صفحة وكانت تطبع في مطبعة جريدة حمص في حمص.

استهلت العدد الأول قائلة:

"إليك العروس سيدتي، فرحبي بها غير مأمورة، فتسر إليك بمكنونات قلبها وشعائر موقفها وتهديه إلى الذين يؤمنون بأن في نفس المرأة قوة تميت جراثيم الفساد".

توقفت العروس في عام ١٩١٤ بسبب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ثم استأنفت إصدارها عام ١٩١٨ وزادت عدد صفحاتها إلى ٦٤ صفحة قالت:

"بعد أربع سنوات تعود العروس اليوم إلى بدئها بعد أن غطست إلى قاع الذهول والوجل، بعد أربع سنوات تعود إلى الظهور شاعرة بشدة حنينها إلى القراء مهنئتهم باجتياز هذه المرحلة القاسية".

أسست ماري جمعية (يقظة المرأة الشامية) مع نازك العابد بيهم وفاطمه مردم بك وسلوى الغزي ومنحهن الملك فيصل مدرسة لاحتضان بنات الشهداء.

وفي عام ١٩٢٠ أسست النادي الأدبي النسائي مع نخبة من السيدات الدمشقيات.

انتخبت عضواً في جمعية (الرابطة الأدبية) في لجنة النقد الأدبي عام ١٩٢١ وكانت الآنسة الوحيدة في هذه الرابطة وكان من أبرز أعضائها خليل مردم بك وفارس الخوري وأحمد شاكر الكرمي وميشيل فرح والمطران أبيفانيوس زائد وفخري البارودي ومحمد الشريقي وجعلت منزلها صالوناً أدبياً يجتمع فيه أعضاء الرابطة.

أقيم لها حفل تكريم في حيفا ويافا بفلسطين سنة ١٩٢٨ وأيضاً في النادي الأرثوذكسي بدمشق عام ١٩٢٩.

عيّنت أستاذة لتدريس اللغة العربية وآدابها في مدرسة الفرنسيسكان (دار السلام حالياً) بدمشق مدة أربع سنوات عام ١٩٣١.

فازت بجائزتين من الإذاعة البريطانية في المباراة الشعرية إحداها عن قصيدتها (الفلاح).

لقد حظيت ماري عجمي بتقدير من البلدان العربية وبخاصة لبنان فقد دعا الأديب جرجي نقولا باز نصير المرأة إلى تكريمها عام ١٩٢٦ بمناسبة يوبيلها الفضي في حقلي الأدب والصحافة.

وتوقفت المجلة في شهر آذار سنة ١٩٢٦ نهائياً.

في آخر أيامها سيطر عليها الحزن واليأس وأصبحت أسيرة الوحدة القاسية فآثرت العزلة ولم تعد تستقبل أحداً في منزلها فكان جهاز الراديو تسليتها الوحيدة وأنيسها فقالت تناجيه:

أنا والأنغام في مسمعي
تدوي وحرُّ الشوق في أضلعي
تردد الأنغامَ مخضوبةً
بما نزا في كبدٍ موجع
على جناح الليلِ في وحشةٍ
معقودةِ الأطرافِ ليست تعي
يا صلتي بالكون في وحدتي
إذ دجا ليل النوى الأروع
مدّي بهذا الصوت يا طالما
حملت إلى الملأ الأرفع
أكل ما يبقيه دهر لنا
سلك من الفولاذ في المخدع

وكانت شقيقتها إيلين تهتم بشؤونها الصحية والعناية بها إلى أن وافتها المنية في ٢٥ كانون الأول سنة ١٩٦٥ ودفنت في مقبرة الباب الشرقي للروم الأرثوذكس بدمشق.

أقام لها النادي الأدبي النسائي والندوة الثقافية النسائية في ٢٥ نيسان ١٩٦٦ حفلة تأبين على مدرج جامعة دمشق وألقيت فيها كلمات السادة الأدباء والأديبات والشعراء: فؤاد الشايب ورئيف خوري وجان كميد ود. ناظم الدغستاني وأمين نخلة والأديبة وداد سكاكيني وعفيفة صعب وريمة كرد علي وسعاد سلوم نصير والشاعر نبيل الظواهرة، وألقى كلمة آل الفقيدة الدكتور جدعون محاسب.

وأطلق اسمها على مدرسة ابتدائية في ساحة جورج خوري في دمشق.

آثار ماري عجمي

١	المجدليه الحسناء – رواية معربة عن الإنكليزية – حمص ١٩١٣.
٢	أمجد الغايات – رواية معربة عن الإنكليزية – بيروت ١٩٢٧.
٣	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر – منشورات الرابطة الثقافية النسائية بدمشق ١٩٤٥.
٤	دوحة الذكرى – مختارات من شعرها ونثرها – وزارة الثقافية دمشق ١٩٦٩



قلادة..

شعر: فرحان الخطيب

عندما..
لا تضحكُ الأشياءُ حولي..
ذاك يعني..
أن عينيكِ غفَتْ فوض الوسادهْ..
عندما..
لا تسمعينَ الشعرَ منّي..
في عشيّاتِ الليالي..
ذاك يعني..
أنّني أخمدْتُ في الشّعرِ اتّقاده..
عندما..
لا يبزغُ الهاتفُ في عَتْمِ انشغالي..
ذاك يعني..
أنّ جيدَ الصّمتِ
يستجدي من النّجم قلادهْ..
عندما..
لا تشعلينَ القلبَ
من موقدِ عينيكِ اخضراراً..
ذاك يعني..
أنّني أحملُ في كفّي رَمادهْ..
عندما..
يقرصُني ثغرُكِ عنّاباً وذكرى..
ذاك يعني..
أنّني
أحتاجُ عقدَينِ لكي أكملَ..
- من عمري -
سَدادَهْ..








عندما..

تسمحُ كفّاكِ بأنْ تنثرَ

في كفيّ شوقاً..

ذاك يعني..

إنّ في فنجانِ روحي..

سكّرَ العشقِ زيادَهْ..

عندما..

تشكينَ من جرحِ الليالي..

تتمنّينَ شفاءً..

ذاك يعني..

أنّ قلبي فاتحٌ للبوحِ

أبوابَ العيادهْ..

عندما..

تغفو أمانيكِ على غيمٍ تشظى..

فاتركيها..

واقطفي أنداءَ غيماتي وقولي:

قد ملكتُ الآن مفتاحَ السّعادهْ

عندما..

تستيقظينَ الصبحَ ظبياً يتثنّى..

وستارُ الليلِ ولّى..

واستحالَ الضوءُ

في غرفتكِ الزرقاء..

ريحاناً وفلاّ..

ذاك يعني..

أنّني قررتُ في الجهرِ اصطيادَهْ..






هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب من بني عامر بن صعصعة، المتوفاة نحو عام ٨٠هـ - ٧٠٠م.

وقيل لها: الأخيلية لقول جدها كعب بن ذي الرحال: [من الكامل]

نحنُ الأخايلُ ما يزالُ غلامُنا
حتى يدبَّ على العَصَا مَذكورا

هي الشخصية النسوية الأولى في عصرها، استطاعت أن تنفرد بمكانة مرموقة في مجتمعها، لم ترق إليها سيدة سواه.

كانت الشخصية الجديرة بالإعجاب، فلقد اجتمع لديها من خلال وسجايا ومواقف جعلت لها جاذبية خاصة؛ فنجد في شعرها الصراحة والجرأة والذكاء، ولعل هذه الشمائل هي من أهم العناصر التي كونت طابع تلك الشاعرة في حياتها، كان ذكاؤها الحاد يسعفها إذا أعوزها التحصيل الشعري، وكانت الجرأة والصراحة عوناً لها عما أصابها في دنياها من آلام ومنغصات على إعلان آرائها الشعرية، وإن شاعرة تحمل لواء الجرأة والصراحة مثل ليلى لهي جديرة بالثناء عليها والتكريم. وإن شعرها لجدير بالاحترام والتقدير، إذ نرى فيه المجاهرة بآرائها وأفكارها دون خوف أو وجل، وهذا دليل واضح على إخلاصها وصدق عاطفتها وتحررها من النفاق الاجتماعي، دون أن ينال ذلك من مهابتها في المجتمع الأدبي، هذا على الرغم مما كانت تتمتع به من خفة الظل وسرعة البديهة على نحو لم تألفه بنات جنسها.

لقد ارتفع صوتها فوق أصوات الرجال، بينما كانت النساء في أوحال الجهالات، يعشن منهوكات القوى تحت أسواط العبودية.

كانت في طليعة الشعراء الذين بذروا بذوراً مثمرة أضاءت الطريق لغيرها، فهي بحق من الذين حملوا ألوية الحرية ومشاعل النور. كانت شجاعة قوية، رابطة الجأش، فصيحة اللسان، ذات بديهة حاضرة واعتداد بالنفس، أنيقة المظهر، ممشوقة القد، طويلة القامة، ظريفة السجايا، بالإضافة إلى ما اختصت به من ذكاء الأنوثة، ولطف الدعابة.

كانت جميلة الطلعة، صقيلة الخد، على أعلى جبينها شامة، صبرت واحتملت الأذى من زوجها الغيور الذي ما كان يتورع عن ضربها الضرب المبرح دون شفقة أو رحمة، وقد تزوجته مكرهة.

ودليلنا على معاملته السيئة تلك الرواية في كتاب الأغاني، والتي تقول بأن رجلا من بني الصحمة سار يبتغي إبلا له حتى أعياه المسير، وأمسى بأرض يجهلها، فقادته المقادير إلى بيت ليلى الأخيلية، ونزل فيه حيث ينزل الضيف، فاستقبلته حتى أرخى الليل سدوله، فأتى زوجها، وما كاد يتبينه حتى سألها: ما هذا السواد حذاءك؟ قالت: راكب أناخ بنا حين غابت الشمس. فكذبها، وقال: ما هو إلا بعض خلانك. وأخذ يضربها وهي تناشده أن يكف عنها. ثم يذكرون بأن الصحمي انهال بهراوته على زوجها وأوسعه ضرباً، ثم ركب راحلته وذهب في ظلمة الليل.

هذه الرواية تعطينا صورة واضحة عن زوجها (الأدلع) الذي كان خسيساً جباناً بعيداً عن الشهامة والمروءة، ولقد عاشت معه متألمة ساخطة متبرمة من حياتها الزوجية الفظة.

عاشت ليلى الأخيلية شطراً من حياتها في عصر الخلفاء الراشدين، وواكبت بعض أحداثه، ويعدها أبو الفرج الأصبهاني من الشاعرات المتقدمات في الإسلام. ويلاحظ أن أكثر شعرها الذي بين أيدينا يرجع إلى العصر الأموي، ففيه ذكر الخلفاء والأمراء الذين جاءتهم مادحة أو شاكية أو عاتبة.

ويعتبرها الحسين البصري في الحماسة البصرية أموية الشعر، ويقول عنها ابن واصل الحموي: هي من النساء المتقدمات في الشعر بين شعراء الدولة الأموية، وبالرغم من أنها عاشت في صدر الإسلام، إلا أنها تعتبر شاعرة أموية.

في حياة ليلى الأخيلية الكثير مما نجهل؛ فنحن لا نعرف شيئاً عن نشأتها الأولى، أو بدء صلتها بتوبة بن الحميّر - صاحبها -، فكل ما نعلم أن توبة كان يهواها ويقول فيها الأشعار، ويجيء لزيارتها فكيف بدأ لقاؤهما؟ ومتى بدأت صلتهما؟ لا نعرف عن ذلك شيئاً. كانت ليلى تحب توبة حباً عذرياً، معجبة به أشد الإعجاب، فهو شجاع مقدام خلوق، متفوق على أقرانه، فارس شديد البأس، سبط البنان، حديد اللسان، شجي الأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، وكان حبهما عذرياً بريئاً من كل دنس، ومن يقرأ شعر ليلى يلمس عفة حبها، وصدق عاطفتها، وكانت تفخر به ويفخر بها، واشتهر شعرها بتوبة، وشهر توبة بها. وقد خطبها توبة من أبيها فأبى أن يزوجه بها، وزوجها رجلاً من بني الأدلع لا نعرف اسمه.

وبنو الأدلع من بني عبادة بن عقيل. وبعد وفاته تزوجت مرة ثانية من سوار بن أوفى القشيرى المعروف بابن الحيا، والحيا اسم أمه، وهي الحيا بنت خالد بن رباح الجرمي، وهو شاعر مخضرم صحابي كما ذكر المرزباني.

ومن أعجب ما روى داوود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ في كتابه تزيين الأسواق عن توبة ((بأنه كان شجاعاً مبرزاً في

قومه،سخياً فصيحاً، مشهوراً بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وكان قومه ينزلون مع بني الأخيل بن كعب - قوم ليلى - فافتتن توبة بليلى، فجعل يعاودها وأطارت لبه، فشكاها يوماً ما نزل به منها، فأعلمته أن بها منه أضعاف ذلك)).

ولا نعرف مقدار صحة هذا الخبر، إذ لم يذكره أحد قبله، وإن كان فيه وجهة نظر - كما قال - والله أعلم.

وقد قتله عبد الله بن سالم. بن عوف بن عقيل. وقيل: إن ليلى الأخيلية تزوجت بعد موت توبة، ثم أن زوجها بعد ذلك مر بقبر توبة وليلى معه. فقال لها: يا ليلى هل تعرفين هذا القبر؟ فقالت: لا. فقال: هذا قبر توبة فسلمي عليه، فقالت: امض لشأنك، فما تريد من توبة وقد بليت عظامه؟ قال: أريد تكذيبه، أليس هو الذي قال: [من الطويل]

وَلَوْ أنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيّةَ سَلَّمَتْ
عَلَيَّ وَدُونِي تُربَةٌ وصَفائحُ
لَسَلَّمْتُ تَسليمَ البَشَاشَةِ أوْزَقَا
إليها صَدًى من جَانِبِ القَبْرِ صَائحُ

فو الله لا برحت أو تسلمي عليه. فقالت: السلام عليك يا توبة، ورحمك الله، وبارك لك فيما صرت إليه. فإذا طائر[1] قد خرج من القبر حتى ضرب صدرها، فشهقت شهقة فماتت، ودفنت إلى جانب قبره، فنبتت على قبريهما شجرتان، فطالتا والتفتا.

صلاتها بالخلفاء والأمراء:

نالت ليلى الأخيلية مكانة لائقة في عصرها، فجالست الخلفاء والأمراء، وكانت لها معهم مواقف رائعة، من ذلك أنه بينما معاوية يسير، إذ رأى راكباً. فقال لبعض شرطه: ائتني به، وإياك أن تروعه، فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: إياه أردت. فلما دنا الراكب حدر لثامه، فإذا ليلى الأخيلية. فأنشأت تقول: [من الوافر]

مُعَاوِيَ لم أكَدْ آتيكَ تَهوي
بِرَحْلِي نحو ساحَتكَ الركابُ
وَكنتَ المُرتَجَى، وَبكَ استَغَاثَتْ
لِتنعِشَها إذا بَخِلَ السَّحَابُ

فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة، فتخيّر أنت؟ فأعطاها خمسين من الإبل. ثم قال: أخبريني عن مضر؟ قالت: فاخر بمضر، وحارب بقيس، وكاثر بتميم، وناظر بأسد. فقال: ويحك يا ليلى، أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ليس كل الناس يقول حقاً، الناس شجرة بغي، يحسدون النعم حيث كانت، وعلى من كانت، كان يا أمير المؤمنين سبط البنان حديد اللسان، شجي الأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، وكان كما قلت ولم أتعدّ الحق فيه: [من الطويل]

بَعيدُ الثَّرىٰ لا يَبلُغُ القومُ قَعْرَهُ[2]
أَلَدُّ مُلِدٌّ يَغْلِبُ الحق باطلُهْ

فقال معاوية: ويحك يا ليلي! يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً.

فقالت مرتجلة:

مَعَاذَ إلهي كانَ والله تَوبَةٌ(٣)
جَواداً على العلاّت جَمّاً نوافلُهْ
أغرَّ خَفَاجيّاً يَرى البُخلَ سُبَّةً

تَحَــالفَ كفَّــاهُ النَّــدى وَأَناملُــهْ
وَكــانَ إذَا مــا الضَّــيْفُ أرْعَــى بَعيــرُهُ
لَدَيْــه أتَــاهُ نَيْلُــهُ وَفَوَاضِــلُهْ
وَ قَــد عَلَــمَ الجـوعُ الّــذي كــانَ سَــارياً
عَلَــى الضَّــيْف والجيــرانِ أنَّــكَ قَاتلُــهْ
وَأنَّــكَ رَحْــبُ البَــاع يــا تَــوْبَ بِــالقِرَى
إذَا مــا لَئيمُ القَــومِ ضــاقَتْ مَنَازِلُــهْ
يَبيــتُ قريــرَ العَــيْنِ مَــن كــان جَارَهُ
وَيُضــحي بخيــرٍ ضَــيْفُهُ وَمُنازِلُــهْ

فقال معاوية: ويحك يا ليلى، لقــد جُـزت بتوبة قدره! فقالت: يا أمير المؤمنين، والله لو رأيته وخبرته لعلمت أني مقصرة في نعتــه، لا أبالغ كُنْهَ ما هو له أهل.

ويقال: إنها دخلت على مروان بن الحكم. فقال: ويحك يا ليلى! أكما نعَـت توبــة كــان؟ قالت: أصلح الله الأمير، والله ما قلت إلا حقــاً، وقد قصرت، وما رأيت رجلاً قط كان أربط على الموت جأشاً، ولا أقل انحياشــاً حــين تحتــدم بَروكاء[٤] الحرب، ويحمى الوطيس[٥] بــالطعن والضرب، وكان والله كما قلت: [من الطويل]

تَــراهُ إذَا مَــا المَــوْتُ حَــلّ بِــورْدِه
ضَــروباً علــى أقرانــه بِالصَّــفَائحَ
شُــجاعٌ لــدى الهَيْجَــاءَ ثَبْـتٌ مُشَـايحٌ[٦]
إذَا انحــازَ عَــنْ أقرانــه كُــلُّ سَــابحٍ
فَعَــاشَ حَميــداً، لاذَميمَــاً فعَالُــهُ
وَصُــولاً لقُرباه، يُــرى غَيْــرَ كَــالحِ

قدمت ليلى الأخيلية علــى الحجــاج بــن يوسف وعنده وجوه أصحابه وأشرافهم، فبينما هو جالس معهم إذ أقبلت ليلى، فأشار إليهــا، وأشارت إليه، فلما دنت منه سلمت ثم قالــت: [من الطويل]

أحَجَّــاجُ إنَّ اللهَ أعْطــاكَ غايَــةً
يُقَصِّــرُ عَنهــا مَــنْ أرادَ مَــداَهَا
أحَجَّــاجُ لا يُفْلَــلْ سِــلاحُك إنَّمــا
المنايَــا بكــفِّ الله حَيــثُ تَراهَــا
إذَا أَوْرَدَ الحَجّــاجُ أرْضــاً مريضَــةً
تَتَبَّــعَ أقْصــى دائهــا فَشَــفَاهَا
شَــفَاهَا مــن الــدّاء العَيَــاء الّــذي بِهــا
غُــلامٌ إذا هَــزَّ القَنَــاةَ ثَنَاهَــا
إذَا سَــمِعَ الحجّــاجُ صَــوْتَ كَتيبــةٍ
أعَــدَّ لهــا قبــلَ النُّــزُول قِراهَــا
أعَــدَّ لهــا مَصْــقُولَةً فارسِــيَّةً
بأيــدي رجــالٍ يَحلُبــونَ صَــراهَا[٧]

فقال الحجاج: قاتلها الله، ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العــراق غيرهــا. ثــم قــال لصاحب له: اذهب بها فاقطع عنــي لســانها، فدعا لها بالحجّام ليقطع لسانها. فقالــت لــه: ثكلتك أمك! ويحك إنما قال لك الأميــر: اقطــع لساني بالعطاء، فارجع إليه فاسأله؟

فسأله فاستشاط غيظاً، وهمّ بقطع لسانه. ثم أمر بها فأدخلــت، فقالــت: أيهــا الأميــر، وأنشدته مرتجلة: [من البسيط]

حَجَّــاجُ أنــتَ الّــذي مــا فوقَــهُ أحَــدٌ
إلاّ الخَليفَــةُ والمسْــتَغْفَرُ الصَّــمَدُ
حَجَّــاجُ أنــتَ شِــهابُ الحــربِ إنْ لَقحَــتْ
وأنــتَ للنّــاسِ نــورٌ فــي الــدُّجى يَقِــدُ

فقال لها الحجاج: يا ليلى، أنشدينا بعـض ما قال فيك توبة؟ فأنشدته: [من الطويل]

نأتــكَ بليلــى دارُهــا لا تَزُورُهــا
وشَــطَّتْ نَواهَــا واســتَمرَّ مَريرُهــا[٨]

وكنتَ إذا ما زُرْتَ ليلى تبرقَعَتْ
وَقَدرَابَني الغَداةَ منها سُفُورُها

فقال: يا ليلى، ما رابه من سفورك؟ فقالت: أيها الأمير، ما رآني قط إلا متبرقعة، فلما جاء ألقيت برقعي وسفرت، فأنكر ذلك وانصرف راجعاً. فقال لها الحجاج: لله درك! فهل كانت بينكما ريبة قط؟ قالت: لا والذي أسأله صلاحك، إلا أني رأيت أنه قال قولاً فظننت أنه خضع لبعض الأمر، فقلت: [من الطويل]

وَذي حَاجَةٍ قُلنا لَهُ: لا تَبُحْ بها
فليسَ إليها ما حييتَ سَبيلُ
لنا صاحبٌ لا يَنبَغي أَنْ نخونَهُ
وَأَنْتَ لأُخرى صاحبٌ وخليلُ

فما كلمني بشيء بعد ذلك حتى فرق الموت بيني وبينه.

وقيل بأنها جاءت إلى الحجاج تهدر كما يهدر البعير الشارد، فلما دخلت نسبها فانتسبت له، فقال: ما أتى بك ياليلى؟ قالت: إخلاف النجوم، وقلة الغيوم، وكَلَب البرد، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد.

قال لها: أخبريني عن الأرض؟ قالت: الأرض مغبرة، والفجاج مقشعرة، وأصابتنا سنون مجحفة مظلمة، لم تدع لنا هيعاً[٩] ولا ريعاً[١٠]، ولا عافطة[١١] ولا نافطة[١٢]، أهلكت الرجال ومزقت العيال، وأفسدت الأموال. فالتفت الحجاج إلى أصحابه وقال: هل تعرفون هذه؟ قالوا: لا. قال هذه ليلى الأخيلية التي تقول:[١٣] [من الكامل]

نَحنُ الأَخَايِلُ لا يَزالُ غُلامُنا
حتّى يَدبَّ على العَصَا مَذكورا
تبكي الرِّماحُ إذا فَقَدْنَ أكُفَّنا
حُزْناً، وتلقانا الرِّفاقُ بحُورا

فقال الحجاج: أنشدينا بعض شعرك؟ فأنشدته: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ ما بالموتِ عارٌ عَلى الفَتى
إذا لم تُصبْهُ في الحياةِ المَعَايِرُ
ومَنْ كانَ ممّا يُحدثُ الدَّهرُ جَازعاً
فلا بُدَّ يَوْماً أن يُرى وَهْوَ صَابِرُ
فكُلُّ جَديدٍ أَوْ شَبَابٍ إِلى بِلًى
وَكلُ امرئٍ يَوْماً إِلى اللهِ صَائِرُ
فَأَقْسَمْتُ أبكي بعدَ تَوْبَةَ هَالِكاً
وَأَحْفِلُ مَنْ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ

ثم قال لها الحجاج: فأنشدينا بعض مراثيك لتوبة؟ فأنشدته: [من الطويل]

لتَبْكِ عَلَيْهِ مِنْ خَفَاجَةَ نسْوَةٌ
بِمَاءِ شُؤُونِ العَبْرَةِ المُتَحَدِّرِ
أَيَا عَيْنُ بَكّي تَوْبَةَ بْنَ حُمَيِّرٍ
بسَحٍّ كفَيْضِ الجَدْوَلِ المُتَفَجِّرِ
فَيَا تَوْبَ للهَيْجَا، وَيَا تَوْبَ للنَّدى
وَيَا تَوْبَ للمُسْتَنْبِجِ المُتَنَوِّرِ
قَتَلْتُم فَتىً لا يُسْقِطُ الرَّوْعُ رُمْحَهُ
إِذَا الخَيْلُ جَالَتْ في قَناً مُتكسِّرِ

ثم قال: فأنشدينا:[من الطويل]

كَأَنَّ فَتَى الفتْيانِ تَوْبَةَ لَم يُنِخْ
قَلائِصَ يَفْحَصْنَ الحَصَا بِالكَراكِرِ[١٤]

فأنشدته حتى انتشى. فقال لها الحجاج: سلي يا ليلى تُعطيْ؟ قالت: أعط فمثلك أعطى فأجزل. قال: لك عشرون. قالت: زد فمثلك زاد فأجمل. قال: لك أربعون. قالت: زد فمثلك زاد فأفضل. قال: لك ستون. قالت: زد فمثلك زاد فأكمل. قال: لك ثمانون. قالت: زد فمثلك زاد فأتم. قال: لك مائة. واعلمي يا ليلى أنها غنمٍ. قالت: معاذ الله أيها الأمير! أنت أجود جوداً، وأمجد مجداً، وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً. قال: فما هي؟ ويحك يا ليلى! قالت: مائة ناقة[١٥] يدعى بها فأمر لها بها.

وكانت ليلى الأخيلية قد حاجّت النابغة الجعدي فأفحمته. فقال النابغة الجعدي فيها: [من الطويل]

ألا حَيِّيا ليلى وقولا لها: هَلا
فقد ركبَتْ[١٦] أغَرَّ مُحَجَّلا
وقد أكلتْ بَقْلاً وَخيماً نباتُهُ
وقد شربَتْ من آخرِ الصَّيْفِ أيّلا

فردت عليه ردا عنيفاً، ودافعت عن نفسها بقولها: [من الطويل]

أَنابغَ لم تَنْبُغْ ولم تكُ أَوَّلا
وكنتَ صَنيناً[١٧] بين قومٍ مُجَهَّلا
أَنابغَ إنْ تنبُغْ بلؤمكَ لا تَجِدْ
بلؤمكَ إلاّ وَسْطَ جَعْدَةَ مَجْعَلا[١٨]
تُعَيِّرُني داءً بأُمّكَ مثلُهُ
وأيُّ جَوادٍ لا يُقالُ لَهُ: هَلا

واستحكم العداء بين بني جعدة ورهط ليلى بسببهما.

ودخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنّت. فقال: ما رأى توبة فيك حتى أحبك؟ قالت: رأى فيّ ما رأى الناس فيك حين ولوك. فضحك عبد الملك حتى بدت له سنّ سوداء كان يخفيها.

رأي الشعراء والأدباء فيها:

قيل للفرزدق: هل حسدت أحداً على شيء من الشعر؟ فقال: لا لم أحسد على شيء منه إلا ليلى الأخيلية في قولها: [من الكامل]

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ القَمِيصُ تَخَالُهُ
بَيْنَ البُيُوتِ مِنَ الحَيَاءِ سَقِيما
حَتّى إذا بَرَزَ اللّواءُ رَأَيْتَهُ
تَحْتَ اللّواءِ عَلَى الخميسِ زَعِيما
لا تَقْرَبَنَّ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ
لا ظَالِماً أَبَداً وَلا مَظْلُوماً

وقد قدمها على نفسه. (أمالي المرتضى ج١- ص٥٨)

قال المبرد: كانت الخنساء وليلى الأخيلية في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول. (زهر الآداب ج٢ - ص٩٢٩)

وقال ابن واصل الحموي: ليلى الأخيلية من النساء المتقدمات في الشعر. (تجريد الأغاني ص١٢٨٦)

وكان أبو نواس يعجب بشعر ليلى ويحفظه.

وكان أبو تمام يضرب المثل بشعر ليلى.

ووصف أبو العلاء المعري شعرها بحسن ظاهره.

وقال أبو زيد الأنصاري المتوفّى عام ٢١٥هـ: ليلى أغزر بحراً، وأكثر تصرفاً، وأقوى لفظاً، والخنساء أذهب في عمود الرثاء.

والحق أن رأي أبي زيد أقرب إلى الحقيقة؛ وإن كان رثاء الأخيلية _ فيما أرى _

لا يقل عن رثاء الخنساء، فقد كانت يحكم لها بالتبريز في مراثي توبة بن الحمير. (ديوان أبي تمام ج١ – ص١٣٥) ومهما قيل في شعرها؛ فإن ليلى الأخيلية شاعرة جريئة ومجيدة وصادقة، وهي من النساء البارزات في الشعر لا يتقدم عليها إلا الخنساء في فن الرثاء، ومرد ذلك إلى تخصيص الخنساء في هذا الفن. وقد أحبت ليلى توبة، ولما بلغها خبر قتله رثته بمراثٍ كثيرة، جيدة، وقالت فيه: [من الطويل]

فَتىً لم يَزَلْ يَزْدادُ خَيراً لَدُن مَشَى
إِلى أنْ عَلاه الشَّيْبُ فَوقَ المسَائحِ

هذه هي ليلى الأخيلية، الشاعرة الفذة، والعبقرية الجريئة، إنها تحفة من التحف الأدبية، قل أن يجود الدهر بمثلها، تجلت لها حقيقة الحياة، فكانت إكسير معرفة، وينبوع شاعرية، فهي السراج وزيته الألم؛ إذ كان شعرها يتوهج في كل أفق من آفاق الكون، متخطية بذلك حدود المألوف والمعروف؛ فشعرها بحق فوق الشعر. وأما ما يميزها عن غيرها فهو غزارة شعرها، وعدم توقفها عند فن واحد من الشعر؛ فقلمها سيال، وآفاقه رحبة رحابة الإلهام الشعري، ولها في كل أفق منه كوكب ينير دياجير الحياة الاجتماعية في عصرها، ويشق درباً وعراً جديداً لكل جيل من الشعراء؛ مما يجعلها متفوقة على أقرانها بشكل ملحوظ.

وبعد، فإن شخصية ليلى الأخيلية القوية وشعرها الملهم قد أصبح موضوعاً شيقاً للكتّاب والمفكرين يتناولونه بالدرس والتحليل والبحث الجاد الرصين، فهي بحق كنز ثمين وذخر نفيس، تعتز به لغة الضاد ما بقي أهلها يتذوقون الفكرة الصائبة والبديهة الحاضرة، والجواب الذكي المفحم، واللفظ القوي المعبر.

---

(١) ويعتقد أنه كان بومة كامنة إلى جوار القبر فزعت وطارت.
(٢) ويروي: قَفره.
(٣) ويروي: كان والله سيداً.
(٤) بَروكاء وبَراكاء: بمعنى ابترك القوم جثواً للركب فاقتتلوا.
(٥) الوطيس: حفيرة يختبز فيها ويشوى. ويقال: حمي الوطيس: أي اشتدت الحرب.
(٦) المشايح: الغيور والحذر.
(٧) يحلبون صراها: أي لا يحبسون لبن الناقة في ضرعها: كناية عن علو الهمة.
(٨) مرير: أي مرّ الشيء، صار مراً، فهو مرير.
(٩) الهَيْع: الماء المتجمع في البرك.
(١٠) الريع: الغلة.
(١١) العافطة: واحدة العنز أو الضأن.
(١٢) النافطة: بثرة تخرج في اليد. ويقال: ماله عافطة ولا نافطة: ماله شيء.
(١٣) وتنسب هذه الأبيات لجدها كعب، كما مر معنا في أول الكلام.
(١٤) الكراكر: ج كِركِرَة: وهي الصدر من كل ذي خفّ.
(١٥) وفي رواية ثلثمائة بعير، كما جاء في شرح ديوان الخنساء. ط دار التراث – بيروت – ١٩٦٨.
(١٦) لفظة فحش.
(١٧) الصنين: من أنتنت رائحته.
(١٨) مجعل: مكانة ورزق.




ناديت جلّق..

شعر: عصام شعبان

ناديــت جلّــقَ والشَّــرْقَ الَّــذي رَقَــدَ
أيْــنَ القُصُــورُ وأَيْــنَ الحَــوْرُ مِــنْ بَــرَدى
هـــذا العَـــدُوُّ عَـــدُوُّ اللَّـــهِ يَـــرْقَبُكُمْ
مَـــنْ رامَ كَيْـــداً فَـــيَجْني غِيْلَـــةً وَرَدى
مــا هــانَ "يُوسُــفُ" تِلْــكَ الأَرْضُ شــاهِدَةٌ
حَتَّـــى رَواهـــا دِمـــاءً حُـــرَّةً وَمُـــدى
سَـــلُوا "فَرَنســا" وَمــا قَــدْ قــالَ قائِلُهــا
عَــنْ "صــالِحِ" المَجْــدِ لَمَّــا ثــارَ وانْفَــرَدَ
"بَغْــدادُ" أَوْرَدَهــا الطَّــاغونَ مَنْزِلَــةً
وكَـــادَ "لُبْنـــانُ" لَـــوْلا اللهُ أنْ يَـــرِدَ
وَهَــذِهِ "القُــدْسُ" مَــنْ للقُــدْسِ يَسْــمَعُها
تُصِــيْحُ: آهـــاً؛ فَــلا نُعْمــاً ولا رَغَــدا
تَكالَــبَ "الــرُّومُ" عَــيْنُ الشَّــرْقِ مــا شَــهِدَتْ
عَيْنــاً أَشَــرَّ عَلــى الأَقْصــى وَلَــنْ تَجِــدَ
وَنامَـــتِ "العُـــرْبُ" عَـــنْ أقْصــاهُمُ فَغَــدا
أَبْنـــاءُ "هِتْلِـــرَ" تَنْكِـــيْلاً بِهِـــمْ وعِـــدا

* * *







يــا بْــنَ الأَكــارِمِ مِــنْ حَمْــدانَ مَنْزِلَــةً
مَــنْ غَيْــرُ عَيْنِــكَ يَبْغــي شَــعْبُنا سَــنَدا

و"الــرُّومُ" خَلْفَــكَ و"الأَعْــرابُ" حَــوْلَهُمُ
يَبْغُــونَ جِلَّــقَ فــانْهَضْ واعْــزِمِ الجَلَــدَ

اللَّـــهُ ناصِــرُكُمْ - مــا دُمْــتَ ناصِــرَهُ -
والشَّــعْبُ حَوْلَــكَ فاضْــرِبْ ضَــيْغَماً أَسَــدا

قَــدْ عَلَّمَتْنــا يَــدُ الثُّــوَّارِ مَلْحَمَــةً
في "عَيْتَــرونَ" طَرِيْقــاً أحْمَــراً وَرِدا

لَبَّيْــكَ لَبَّيْــكَ "حِــزْبَ اللَّــهِ" نَعْرِفُــهُ
داعٍ إلى الحَــقِّ تَصْــدِيْقاً لِمــا وَعَــدَ

وَذَلِــكَ الشَّــعْبُ يــا "بَشَّــارُ" بــايَعَكُمْ
فَسِــرْ وباللَّـــهِ مَنْصُــوراً وَمُعْتَمِــدا

في ســابِعِ العَشْــرِ مِــنْ تَمُّــوزَ مَوْعِــدُنا
وَأَنْــتَ أوفــى بمــا عاهَــدْتَ مُجْتَهِــدا

دُمْــتُمْ لَنــا وَجُنُــودُ اللَّــهِ تَحْرُسُــكُمْ
مــا غَــرَّدَ الطَّيْــرُ لَحْــنَ "الغُــوطَتَيْنِ" شَــدا

دِمَشْــقُ مَهْــرُكِ أَنْحَلْنــاهُ مِــنْ دَمِنــا
إنْ شِــئتِ مِنّــا سَــكَبْنا أدْمُعــاً ونَــدى

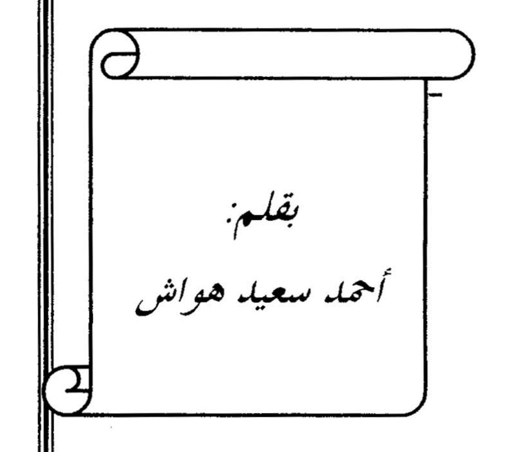



الدكتور

أمجد الطرابلسي

(١٩١٦ – ٢٠٠١)

المربّي الفذ
والأديب المبدع
والشاعر المطبوع



بقلم:
أحمد سعيد هواش

عندما أستعرض سيرة كوكبة من رجال الفكر والمربين العرب الذين دعوا للوحدة العربية لتكون أمة قوية تسير في ركب الحضارة المعاصرة وتكون فاعلة فيها تعطي أكثر مما تأخذ، وتعيد سيرة الحضارة العربية في زمن الشموخ العربي والتي أضاءت سماء بغداد، والقاهرة، ودمشق، وبلاد الأندلس، أمثال المفكر القومي الرائد ساطع الحصري، وشيخ العروبة أحمد زكي، والدكتور سامي الدروبي، والأستاذ زكي الأرسوزي، والأستاذ عادل العوا، والأستاذ عبد الكريم زهور عدي، والدكتور أمجد الطرابلسي وغيرهم، أتذكر العالم الموسوعي العربي أبا عثمان الجاحظ الذي عرف بمآثره الحميدة وثقافته المتنوعة والخصبة، كما عرف بحبه لأمته العربية وفضلها على بقية الأمم وضمَّنها مؤلفاته وخاصة كتابه (البيان والتبيين) وفيه ردٌّ على الشعوبية الحاقدة على الأمة العربية وخصائلها، فيقول فيهم:

".. وأعلم أنك لم ترَ قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا أشدَّ استهلاكاً لعرضه ولا أقل غنماً من أهل النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم".

وكان الدكتور أمجد الطرابلسي تلميذاً نجيباً لأستاذه أبي عثمان الجاحظ، واتخذ منه حبه للغة العربية وتلقينها للناشئة الواعدة طريقاً ومساهمة مباشرة في الدعوة إلى الوحدة العربية والنضال من أجل المبادئ القومية.

فلنلق نظرة عاجلة على حياة هذا المربي الكبير.

ولد أمجد بن حسني بن محمود الطرابلسي في دمشق في العاشر من رجب من سنة ١٣٤٤هـ الموافق ١٣ أيار من سنة ١٩١٦. كان والده ضابطاً في الجيش العثماني، ثم ضابطاً في الجيش الفيصلي، جاء جد هذا

الضابط إلى دمشق من طرابلس الشام، ولما كان أمجد في السابعة من العمر توفي والده فانتسب إلى مدرسة التجهيز (مكتب عنبر) عام ١٩٢٧م، بنفس السنة التي عُيِّنَ فيها الشاعر محمد البزم مدرساً للعربية فيها. فكان أستاذه واجتاز امتحان الشهادة الثانوية قسم الفلسفة سنة ١٩٣٤م، وفي هذه السنة بدأ بنشر شعره، وقرأ له القراء قصائده (اليتيم، عاصفة في قلب، عرس في مأتم).

عُيِّن في خريف عام ١٩٣٥ معلماً في قرية جباتا الزيت جنوب دمشق (الجولان) وفي عام ١٩٣٦م، انتسب إلى صف المعلمين العالي، وحصل على شهادته وانتدبته وزارة المعارف لتدريس اللغة العربية في ثانوية الكلية العلمية الوطنية بدمشق، وسافر إلى فرنسا أواخر سنة ١٩٣٨م إثر نجاحه في المسابقة للتخصص في الأدب في جملة الذين سافروا - آنذاك - لقاء ثلاث سنوات، ولكن الحرب العالمية الثانية لم تأذن بالعودة إلا في عام ١٩٤٥م، وأنجز في فرنسا الليسانس ثم الدكتوراه في السوربون، وأول ما عمل مدرساً في ثانوية التجهيز (مدرسة جودة الهاشمي اليوم) ١٩٤٥م.

في ٦ تشرين الثاني عام ١٩٥٠ انتدب لتدريس التطبيقات الدرسية في اللغة العربية في المعهد العالي للمعلمين بدمشق، وعُيِّنَ أستاذاً بكلية الآداب بدمشق ١٩٤٦ ، ١٩٥٨م، وشغل نائب عميد كلية الآداب، ورئيس قسم اللغة العربية فيها، وفي عام ١٩٦٠ انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق وكما تولى الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي منصب وزير التربية والتعليم/ الإقليم الشمالي من عام ١٩٥٨ حتى ١٩٦١.

وقام بإرسال كوكبة من الشعراء: شفيق جبري، محمد الفراتي، أنور العطار، ليمثلوا القطر في مهرجان خليل مطران الذي أقيم في القاهرة.

له:

١- النقد واللغة في رسالة الغفران - مطبعة جامعة دمشق ١٩٥١.

٢- حركة التأليف عند العرب - مطبعة جامعة دمشق ط١ ١٩٥٦، وطبعة ثانية بعنوان نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب - حلب مطبعة الأصيل ١٩٦٦، وطبعة رابعة ١٩٦٩.

٣- النقد العربي حتى أواخر القرن الخامس الهجري - أطروحة دكتوراه باللغة الفرنسية من جامعة السوربون - ط١ ١٩٩٣ ترجمة إدريس بلمليح وطبع بالدار البيضاء - المغرب - وكان قد صدر الكتاب بالفرنسية في سلسلة منشورات المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٥٦م.

٤- محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام، من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، ألقاها في معهد الدراسات العالية في القاهرة ١٩٥٧م.

٥- زجر النابح (مقتطفات) لأبي العلاء المعري (تحقيق) دمشق، مطبعة الترقي ١٩٦٥م، منشورات المجمع العلمي بدمشق.

٦- شعراء الشام والفكرة العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين (محاضرة) ألقاها في الكويت ١٩٥٦، نشرت في كتاب محاضرات الموسم الثقافي.

٧- تأملات وذكريات في حرم المسجد الجامع في قرطبة (محاضرة) ألقاها في الكويت، ٢٢ص، ١٩٥٦م ، نشرت في كتاب محاضرات الموسم الثقافي.

٨- مجموعة من شعره بعنوان (كان شاعراً) منشورات المجلس القومي للثقافة العربية - الدار البيضاء ١٩٩٣م.

لقد عشق الدكتور الطرابلسي رسالته مربياً لتنشئة أجيال على أسس صحيحة، لأن

الشباب هم عماد الأمة، وكان العلاّمة أمجد الطرابلسي يصر على توجيه الطلاب وتربيتهم تربية قومية، وقد اختاره الرئيس جمال عبد الناصر ليكون وزيراً للتربية والتعليم في الإقليم الشمالي في دولة الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨ - ١٩٦١م) وفي إحدى زياراته لمحافظة السويداء قال موجهاً كلامه لجمهور المعلمين: "التربية هي مهمتكم الأولى قبل التعليم" وأعطى درساً بليغاً في التربية كما يقول راوي الخبر: "لقد كان هم فقيدنا أن يعلم طلابه كيف يتعلمون، مستمسكاً بأحدث شعارات التربية الحديثة بل المستقبلية،ـ تعني العمل على إعداد إنسانٍ قادر على أن يعلم نفسه بنفسه، لا إنساناً متعلماً".

ولعل الدكتور أمجد الطرابلسي كان قد تأثر بما تربى عليه في ثانوية (مكتب عنبر) عام ١٩٢٧م، وقد ضمت هذه الثانوية نخبة من الأساتذة العلماء، يقول الأستاذ الدكتور أمجد في خطاب استقباله عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية متحدثاً عن هذه المدرسة: "وكانت هذه المدرسة حين انتسبت إليها تضمُّ في عداد أساتذتها ثلاثة من فحول العربية، كلهم أساتذتي، ولكل منهم عليَّ في الفضل ما لا يسعه عرفاني بالجميل: إثنان منهم كانا عضوين في المجمع هما عبد القادر المبارك وسليم الجندي، والثالث كان يشق طريقه إلى المجمع، وهو محمد البزم. أعلام ثلاثة أحالوا المدرسة آنئذ إلى مجمع آخر بعلمهم الغزير، ودروسهم الشيقة".

يقول الدكتور شكري فيصل متحدثاً عن مكتب عنبر والدكتور أمجد: "هذا البيت العتيق الذي خرج منه العلماء والأدباء والشعراء، خرج منه الثائرون والمصلحون.. في عنبر تفتحت عبقريات.. أمجد الطرابلسي أحد هذه العبقريات الفذة..".

كان مكتب عنبر مدرسة تخرج النخبة من أبناء الدول العربية قادوا الحركة الفكرية والوطنية في سورية وفلسطين والأردن وغيرهم.. وكان الطلاب يلتقون في ساحات الجهاد في ميسلون وغيرها من أرض الوطن العربي.. يدافعون عن أوطانهم جنباً إلى جنب.

فبعد أن عاد "إلى الوطن في أواخر عام ١٩٤٥م، بعد أن أمضى في فرنسا نحو سبع سنين ونصف السنة عُيّن في ثانوية جودة الهاشمي مدرساً فيها لمدة سنة، لينتقل بعدها إلى رحاب الجامعة، واحتل الأستاذ أمجد كرسيه الذي كان ينتظره في كلية الآداب، وبدأ مرحلة جديدة في حياته امتدت اثنتي عشرة سنة، درَّس فيها الأدب العربي، وأرسى قواعده، وبسط مناهجه، وضرب المثل الصالح في التدريس التي سلكها لينشئ طلابه، وقد تزودوا بزاد من المعرفة وحبٍّ البحث يقوّوْب بهما على القيام بعملهم، وأداء رسالتهم العلمية على الوجه المرضي".

وبعد أن حصل الانفصال المشؤوم ٢٨ أيلول ١٩٦١ عاد الدكتور أمجد الطرابلسي من عاصمة دولة الوحدة مودعاً الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان محل ثقته، إلى دمشق، وهو يشعر بالأسى والحزن على تفكيك عرى أول وحدة عربية في العصر الحديث، واصفاً بأن من أقدم على هذا الفعل الخطير تنقصه التربية، فاعتزل العمل الحكومي رغم الإلحاح والعروض التي قدمت له من سورية ومصر لإقناعه بمواصلة مشروعه العلمي، رافضاً بذلك أن يخدم نصف دولة عربية بعد أن خدم دولة عربية موحدة، وسافر إلى المغرب العربي الشقيق، ودرَّس في جامعتي محمد الخامس بالرباط، ومحمد عبد الله في فاس منذ سنة ١٩٦٢م وحتى ١٩٩٢م تاريخ إحالته على التقاعد

اشتغل في هذه المدة في تدريس مواد اللغة العربية (النقد الأدبي، والأدب المقارن، والأدب الجاهلي والمخضرم والمغربي).

وأشرف خلال ثلاثين سنة من العمل على ما ينيف على ستين رسالة من أبحاث الماجستير ودكتوراه الدولة كأستاذ محاضر في التعليم العالي.

ولقد تخرجت على يديه نخبة من الطلاب الذين ارتقوا إلى أعلى المناصب والإدارات وأشرفوا على تسيير عدد كبير من الأعمال في الكليات والشعب والجامعات، والمنظمات الدولية.

انتقل نهائياً من المغرب ليستقر مع أسرته وأنجاله وأحفاده في باريس بفرنسا في عام ١٩٩٣، وقد وافته المنية بتاريخ ٢٨/ ١/ ٢٠٠١ ودفن في مقبرة المسلمين في باريس.

وبذلك خسرت الأمة العربية والساحة الفكرية والتربوية على وجه الخصوص أستاذاً كبيراً، ومربياً فذاً، وشاعراً مبدعاً وداعية للقومية العربية والوحدة بين أقطار الأمة العربية جامعاً ما بين رصانة الفكر والمعرفة التامة بأوضاع أمته العربية، وقد تخرجت على يديه أجيال من العلماء والمفكرين والأدباء في دمشق والرباط، وهو يفتخر بهم وهم يكنون له الحب والوفاء والاحترام.

وقد أقام اتحاد كتاب المغرب العربي بالاشتراك مع جامعتي فاس والرباط في المدة بين ١ و ٤ /٤/ ١٩٨٧ حفلاً تكريميا للدكتور أمجد طرابلسي بمناسبة مرور ربع قرن على هجرته إلى المغرب شارك فيها في التدريس بأقسام اللغة العربية في جامعات الدار البيضاء وفاس والرباط، وقد ألقيت في هذا الحفل بحوث علمية قيمة حول المصطلح النقدي، وحول مؤلفات الدكتور أمجد. وحول منهجه العلمي في المحاضرة والإشراف على الرسائل الجامعية.

وكان الدكتور أمجد الطرابلسي قد انتخب عضواً عاملا في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٦٠م، وتأخر موعد استقباله في المجمع لشواغل عديدة، وفي مساء يوم الخميس ١٩٧١/٩/٢٣ تم استقبال الدكتور أمجد الطرابلسي في جلسة علنية عقدها المجمع وافتتح الجلسة رئيس المجمع الأستاذ الدكتور حسني سبح، ثم ألقى الدكتور شكري فيصل كلمة جامعة هامة عن حياة وأعمال ومؤلفات الدكتور أمجد الطرابلسي، ومما قاله الدكتور شكري فيصل، بعد الترحيب به، مخاطباً إياه:

"في هذه السنوات كنت مثلاً للإيثار.. لم تصنع، ولم يصنع أخوانك كتباً كثيرة، لأنك كنت تعمل عملك الصامت هذا في مصنع الأجيال التي تخرجت من القسم ومن الكلية – كلهم مدين لك على نحو من الدين – فإذا جاء الوطن يهبك أرفع مناصبه العلمية، فإنه لا يفعل شيئا إلا أن يرد لك هذا الدين أو بعضاً منه".

ثم ألقى الدكتور أمجد الطرابلسي خطابه فتحدث عن سلفه محمد البزم، وتحدث عن صلته القديمة بالمجمع الذي كان يقع على طريقه بين داره والمدرسة في حي الخراب، فكان يمر على المجمع كلما تهيأت الفرص، واستعاد ذكرياته والمحاضرات التي حضرها في المجمع وصور بعض أعضاء المجمع التي لازالت في ذاكرته مثل رئيس المجمع الرئيس محمد كرد علي والعلامة فارس الخوري، "وكان أوضح تلك الصور مشهد الحفل الذي أقامه المجمع عام ١٩٢٩ تكريماً للشاعر العربي الكبير حافظ إبراهيم، ولا زال يرن في أذنيه صدى هذين البيتين الرائعين اللذين قالهما شاعر النيل حافظ إبراهيم في أثناء إلقائه كلمة الشكر لرئيس المجمع وأعضائه الذين كرّموه:

شكرتُ جميل صنعكم بدمعي
ودمعُ العين مقياسُ الشعورِ
لأول مرةٍ قد ذاق جفني

علـــى مـــا ذاقـــه دمــــعَ الســــرور

يقول الدكتور أمجد الطرابلسي: وحم أتمنى يا ساداتي أن أقول لكم مثل هذين البيتين الرائعين إذاً لاستغنيت بهما عن كل هذه الصفحات التي أسوّدها".

الدكتور أمجد الطرابلسي شاعراً

من يقرأ مجلة الرسالة الشهرية لصاحبها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات في عقدها الأول (١٩٣٤ - ١٩٣٨) من القرنِ الماضي، يجد قصيدة في كل شهر فيها تقريبا للمعلم الشاب أمجد الطرابلسي، وتتميز هذه القصائد بجودة موضوعاتها وعذوبة ألفاظها وجزالة عباراتها وهذا يدل على أن مبدع هذه القصائد شاعر مطبوع وذو موهبة حقيقية.. وهذا ما أشار إليه الدكتور شكري فيصل في خطابٍ استقباله للدكتور أمجد الطرابلسي عضواً عاملا في مجمع اللغة العربية بدمشق إذ قال: "أما شعرك هذا العذب، أما قصائدك التي كانت سبحات روح وتطلعات وجدان فقد بدأت مكتملة منذ كانت في سنة ١٩٣٤م قصائدك الثلاث التي أشرت إليها.. وتلك معجزة شعرك الأولى.. إنه لم يعرف مرحلة البرعمة إذ اكتملت له الأدوات منذ نماذجه المبكرة.. وقد تتبعت قصائدك بعد ذلك على مدى السنوات بين ٣٥ و ٣٩ في (الرسالة) في سنة ٣٥ كانت (زهرة آذار) هدية لصديقك الشاعر الرقيق المرهف الأستاذ أنور العطار و(ألحان الفجر) التي أهديتها إلى مجد الهجرة وفجر الإسلام و(أسطورة الخلود) التي كانت من وحي عصفورة و(أرض النبوة) التي أهديتها للكاتب العبقري علي الطنطاوي بعد عودته من الديار المقدسة.. ومع سنة ٣٩ بدأت قصائدك من باريس (النور) و(قالو سكت عن الغناء) و(مصرع الصقر) التي ألقيتها في أربعين غازي هناك، و(وردّ التحية) وكانت وحي زهرة طوى عليها أخوك العامل الصامت الأستاذ أكرم رسالته ليشعرك بربيع دمشق، وقصائد أخرى غيرها ليس لي أن أعدد كلها".

وبعد صمت تجاوز خمسين عاماً، أصدر الشاعر الدكتور أمجد الطرابلسي ديوانه الأول، إذ جمع فيهِ بعض قصائده التي نظمها طيلة خمسينِ عاماً، وقد أطلق على ديوانه اسم (كان شاعرا) وهي ليست كل شعره بالتأكيد، إنها قبسات ومختارات لا أكثر، كما يؤكد صاحبها ذلك، في تقديمه للديوان الذي طبع في المغرب ١٩٩٣م. وقد جاء بمئتين وثماني صفحات، وكان عددٍ قصائده أربعين، وتحمل في مستهلها تفسيراً لعنوان المجموعة التي اختاره لها، يقولِ إنه: "عندما كان في الخمسينيات أستاذاً في كلية الآداب بجامعة دمشق، أقام الطلاب معرضا لرسومهم الكاريكاتورية، وحينِ زار هذا امعرض، شاهد فيه رسماً له، وقد كتب تحته (كان شعرا) ومنذِ ذلك الوقت، قرر شاعرنا أن يحمل كان شاعراً عنوان أول مجموعة شعريةٍ ينشرها، وقد فعل ذلك، ولكن بعد أربعين عاما".

"وقد ضمن الديوان أربعين نصاً ما بين طويل وقصير، حمل بعضها الهم القوميٍ، إلى جانب البعد الروحي، والوجداني مراوحا بين القصيدة السلفية، وقصيدة التفعيلة أو المزج بينهما في عدد من النصوص وذلك برؤى معاصرة دون أي مساس بوحدة القصيدة ككل"

وقد استهل الدكتور أمجد الطرابلسي مجموعته بهذه الأبيات:

قـــالوا: ســكتَ عـــن الغنـــاء؟ فقلـــتُ: لا
فـــي مســـمعِ الأكـــوانَ رجـــعُ غِنـــائي
الكـــــونُ لحنـــي كلّـــه رتّلتـــهُ
فـــي نشـــوةِ الإصـــباح والإمســـاءَ
ألّفتـــه مـــنَ آهتـــي وتبســـمي
فاستنشـــدوه يُعـــدْ لكـــم أصـــدائي

لقد اختصر الشاعر الدكتور أمجد الطرابلسي مسيرة حياته الشعرية بهذه الأبيات الثلاثة، فقد شغلته حياة الدراسة والتدريس

والأعمال الإدارية بالجامعات والمنصب الوزاري عن قرض الشعر، هذا الفن الجميل، الذي يحتاج إلى أجواء خاصة من راحة النفس، وأنى لهذه الأجواء أن تتهيأ للدكتور أمجد الطرابلسي الذي حمل هم أمته وبلده وأبناءه الطلاب في دمشق والمغرب العربي.

ولما شعر الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي بأن هذا الهم قد أزيح عن كاهله رجع إلى الشعر المحبب لنفسه، فكان شعره صدى نفسه وآلامه وآماله، فلتنشده الأجيال من بعده لترى صورة ذلك الإنسان الكبير الذي خدم أمته العربية بكل جوارحه وقلبه فاستحق منا الشكر والعرفان بالجميل.

وكان الدكتور أمجد قد أهدى ديوانه (كان شاعرا): إلى رفيقة الدرب منذ خمسين عاما، أم أولادي، وجدّة أحفادي مونيك الحبيبة: زوجتي.

ونجد في ديوان الشاعر الدكتور أمجد الطرابلسي مدى تأثره بالقرآن الكريم، فنقرأ قصيدة (همزة الفداء) ١٩٣٧: آية [١٠٢ - ١٠٧] سورة الصافات: إذ قال:

شعَّ من بسمة الصَّباح الضياءُ
وأفاقت من حُلْمها البَطحاءُ
فمن الشَّمس والرمال نضارٌ
ومن الظلِّ واحةٌ غنَّاءُ
السُّهوبُ الفساحُ والأفقُ الزَّا
هي وتلك الغمائمُ البيضاءُ

إلى أن يقول:

أينَ شعري ممَّا تغنّي به البيـ
ـدُ وتشدو الطبيعةُ الخرساءُ؟
يا لصمت الرمال! عودٌ ومزما
رٌ وناي ومزهرٌ وحُداءُ

والقصيدة طويلة (مائة بيت) تمتاز بالرقة والعذوبة، ومتانة القافية..

وفي قصيدة (همزية الأسراء) يتكئ الشاعر أمجد الطرابلسي على التراث القرآني فيستلهم من القرآن الكريم قصة (إبراهيم عليه السلام) مع ولده إسماعيل عليهما السلام. فيصفها في نص شعري بأسلوب قصصي اكتملت له عناصر القص الشعري جميعه.

ولعل الهم القوم كان من أهم اهتمامات شاعرنا الطرابلسي، فنقرا له في هذا الموضوع قصيدة (فوزي القاوقجي) ١٩٤٢، وقد قالها الشاعر في حفل تكريم فوزي القاوقجي الذي حارب في الثورة السورية ١٩٢٥م، وفي فلسطين ١٩٣٦م، في فندق (كلاديدج) في باريس، ومما قاله الشاعر طرابلسي:

فوزي أتبسَّمَ لي بعينيك الغدُ
وانجابَ عني القناعُ الأسودُ
لما رأيتُكَ فتَّحت أجفانها
ذكرٌ تهدهدها الجراحُ فترقدُ
لاحت لناظري الحسير عجاجةٌ
لمَّا تجلَّى نقعُها المتلبِّدُ
برزت فوارسُ تحتها وصواهلٌ
جُردٌ وأسيافٌ تُسَل وتُغْمَدُ
وقنا وألويةٌ تموجُ وضجةٌ
فرحى تقومُ لها القفارُ وتقعدُ
فوزي! أتُبصرُها عصائب ترتمي
وعدىً تفرُّ من القتالِ وترعدُ؟

ما أجمل هذا الشعر وما أعذبه، لقد شعرت بأنني أمام نصٍّ شعري لشاعر جاهلي مثل عنترة أو لأبي الطيب المتنبي وهو يصف إحدى معارك البطل سيف الدولة الحمداني، إنها صورة حية لبطل ومعركة فنرى: الجراح، والعجاج يغطي أرض المعركة، وفوارس يظهرون تحت العجاج بعد انجلاء نقع المعركة المتلبّد بالغبار، كذا تظهر الرماح والألوية والرايات التي تموج في سماء المعركة وهي

فرحى بالنصر فتتجاوب معها القفار فتقوم وتقعد، ويطلب الشاعر من المجاهد فوزي القاوقجي أن يبصر عصائب العدو التي ترتمي، والأعداء الذين خرّوا من القتال وهم يرتعدون خوفاً، إنها صورة متحركة حيّة نقلها لنا شاعرنا الطرابلسي المبدع.

وفي قصيدة (علمان يطويان وعلم يُنشرُ) وقد ألقى الشاعر الطرابلسي هذه القصيدة في مهرجان جامعة دمشقٍ في العشرين من آذار ١٩٥٨ تمجيداً لقيام الجمهورية العربية المتحدة إذ قال فيها:

عَلمي مصر وسوريا وداعا وقبلةْ
إنني أطويكما طِيَّ جراحاتي الغوالي
وبنفسي نشوةُ العز وتحنانُ المولّه
إنني أطويكما في ذكرياتي وخيالي
بعد أن أضفى علينا علم الوحدة ظلّه

لقد أحب الدكتور أمجد الطرابلسي الوحدة العربية ودعا لها طيلة حياته، وها هو يغني لها، فليرتفع علم الوحدة ولتطوى أعلام التجزئة.

وفي نفسٍ القصيدة يسترسل الشاعر الطرابلسي تمجيداً بعلم الجمهورية المتحدة إذ قال:

علم الوحدة يا مجدي في يومي الجديد
علم الوحدة يا مجد غدي يا فخر عيدي
علم الوحدة يا حلم رغابي وشبابي
إنني إركزك اليوم على شمِّ هضابي

إنه العشق الصوفي للوحدة العربية المتمثلة بالجمهورية العربية الوليدة وعلمها الحبيب الذي يحقق رغبات عشاق الوحدة المباركة، فلنركزه على شم الهضاب ليراه العالم أجمع.

وفي الذكرى الثالثة لاستشهاد العقيد الركن عدنان المالكي في نيسان ١٩٥٨ بعد شهرين من قيام الجمهورية العربية المتحدة، يخشى الشاعر الدكتور أمجد الطرابلسي على هذه الوحدة من كيد الكائدين، وكان على حق بذلك فقال:

هذه الوحدة كم سال على
حُلمها الرفَّاف من جرح سخي
برأ الله لنا جوهرها
ووقاها من شراك الأجنبي

لقد تعاون الأجنبي مع عملائه وعملا معاً على هدم هذه الوحدة التي كانت حلماً جميلاً للملايين من أبناء يعرب، واندثر الحلم وتبددت الآمال.

وللشاعر الدكتور أمجد الطرابلسي قصيدة كان ألقاها في الملعب البلدي بدمشق في الذكرى الثالثة لاستشهاد العقيد عدنان المالكي تتسم بالرقة والسلاسة، وذلك في نيسان ١٩٥٨م، وفي المكان الذي استشهد فيه الفقيد، وهي بعنوان (عدنان المالكي) نذكر منها بالإضافة للبيتين السابقين:

عندما تفترُّ للنبع الشفاه
بعد أن حنَّت إلى قطرة ماءْ
عندما تشرق للركب مُناه
ويلوحُ الفجر منشور الضياء
عندما تشمخُ للجُند جباهْ
ويرفُّ النصر خفَّاق اللواءْ
ينحني الشعب على قبر فتاه
ويُحيّي فيه مجد الشهداء

إن الأمم العظيمة هي التي تعرف معنى التضحية والفداء والاستشهاد في سبيل الأوطان، وأمتنا العربية من أول الأمم التي

تعرف قدر الشهيد الذي بذلك روحه في سبيل الوطن، والشهيد ممجدٌ من الله تعالى ومن أبناء وطنه، وذلك حال شهيدنا العقيد عدنان المالكي الذي بكاه أبناء الشعب، ويحيّي فيه مجد الشهداء..

وتعود بي الذكرى لأكثر من خمسين عاماً وتحديداً في الثاني والعشرين من نيسان عام ١٩٥٦ عندما سمعت من الإذاعة السورية صوت الدكتور أمجد الطرابلسي وهو يلقي كلمته في حفل تأبي الشهيد العقيد عدنان المالكي في الملعب البلدي بدمشق حيث ألقى كلمة الجامعة السورية، وقد افتتح كلمته بهذه العبارات الحزينة المؤثرة إذ قال: "ذلك العربي الذي كان يجلو مقلتي نسر.. ذلك الجندي الذي كانت تبشر طلعته بالنصر.. ذلك السمهري الذي لم تلن قناته لطول الأسر.. ذلك الفتى.. لم يتح لي، وأسفاه! إلا مرة واحدة أن أطهر عيني بنور عينيه، وأن أشد قلبي بالإيمان الذي يعمر جنبيه" وقد اختتم كلمته هذه بهذين البيتين من شعر الشاعر القروي المعبر عن الحب للشهيد والوطن:

أيها الشهيد البطل:

إنَّ في موتك أعلى مثل
للفدا تنشدهُ النفسُ الأبيةْ
رحمةُ الله على كل فتى
عربيٍّ، راح للعرب ضحيةْ

يقول الدكتور عبد الله عبد الدائم في كلمته التأبينية للدكتور أمجد الطرابلسي: "والحق، إن أهم ما يسم طباع الصديق أمجد وفكره في آن واحد، الإباء والشمم. لقد كان منتصباً في وقفته ومشيته وتحيته، كما كان أشمَّ شامخاً في أفكاره وقناعاته ومبادئه".

ومن قصائد الديوان (كان شاعراً): (بور سعيد، رصاص فتح، حنين، الإسراء، مع آذان الفجر، هياكل بعلبك، غربتان) وقد قدَّم لها بقوله: "على قبر الصديق حكمة هاشم، وكنا اغتربنا معاً ثلاثين عاماً ثم مات غريباً في باريس عام ١٩٨٢م".

والقصيدة تفصح عن إحساس الشاعر الدكتور أمجد الطرابلسي بقساوة الغربة والتطلع نحو دمشق التي أحبها وأحبته إذ قال:

أتيتُ يا صديقُ أبكي وُدَّك
أذكرُ عهدي ها هُنا وعهدك
أبكي (علينا) لا عليكَ وحدك
هذا مصيري يا أخيَّ بعدك
من يا تُرى، فتى قصدتُ قصدك
يذكر لحدي، أو يزورُ لحدك

* * *

كنّا نقولُ: غربةٌ يوماً لها انقضاءْ
ثم نعودُ حيث ننسى البعد والشّقاء
ونلتقي في حَيِّنا أهلاً وأصدقاءْ
ها هي ذي تصرَّمتْ وانكشفَ العماءْ
من بعد غربةِ الحياة غربة الفناءْ
وهذه يا صاحبي ليس لها انتهاءْ

وبعد هذه ملامح من حياة العلاّمة الدكتور أمجد الطرابلسي المربي الفذ، والأديب المبدع والشاعر المطبوع، الذي مات غريباً، وهو حي في قلوب الملايين من أبناء أمته العربية.




أمي..

شعر: حسن عدنان قداح

دعيني أشدُّ على الكفّ ثمّ
أهيلُ عليكِ حنيناً ولثما
فإنيَ طفتُ البلاد وجئتُ
فلا لم أجد منكِ أحلى وأسمى
فأنتِ الحنان وأنتِ التمنّي
وأنتِ العيون إذا صرتُ أعمى
فيا نور عيني ويا كلّ عمري
ويا نبض قلبي وما فيه ضمّا
تحيطين روحيَ أنتِ سماء
وإنيَ نجمٌ وترعينَ نجما
سأجثو على ركبتيّ وأبكي
وأشكو إليكِ زمانا وهمّا
بحضنكِ دوما أخبّئ رأسي
كطيرٍ يخاف رقيباً وسهما
فحضنكِ بستان حبٍّ رحيبٍ
يهادي محبّاً... يسامح خصما
كأنّا مراكب سارتْ ليمٍّ
وتمسين عند المراكب يمّا
أناديكِ أمي ولو صرت كهلا.
وأبقى صغيراً وتبقين أمّا






يصعب على الإنسان أن يشعر بظلم أبناء جنسه من الشبابِ والكهول والمسنين فهذا يعبّر عن غبنهم فالكل وبشكل طبيعي يتساءلون عمّا يمنع وصول أخبار النخب المتميزين من أبناء شعبنا سواء قطنوا وطنهم أم هجروه، وهذا برأيي يثير إشكاليةِ عدم التعرف على الآخرِ حتى ولو كان قريباً فكم بالحري إذا كان بعيداً. فلماذا مثلاً لاذقيو سوريا لا يعرفون الشاعر والأديب اللاذقي خليل شيبوب وهو المتميز بين مجموعة من الشعراء الرومانسيين، كخليل مطران وإلياس أبو شبكة. نعم يتبوأ خليل شيبوب مكانة كبيرة بين أبناء عصره ولا ننسى أخاه صديق ذاك الصحفي اللامع الذي كتب حوالي عشرة آلاف مقال وبحث وقصة وترجمة وامتاز أسلوبه بالسلاسة والرشاقة وقد أشرف على تحرير الصفحة الأدبية في البصير حوالي أربعين سنة واليوم في الإسكندرية شارع يحمل اسمه وكنت أتمنى لو حصلت على أي أثر من آثاره الأدبية ومقالاته وكتبه وترجماته، وآمل أن أحصل عليها في وقت لاحق.

ولد خليل إبراهيم شيبوب في اللاذقية ٢٨ كانون الثاني عام ١٨٩١ من أسرة متوسطة الحال تتعاطى الأعمال التجارية ، تلقى تعليمه في إحدى المدارس الصغيرة، ثم نقله أبوه إلى مدرسة الفرير، التي تلقى فيها دروسه بالفرنسية فأتقنها، والتي عبّ من أدبها وشعرها و تلقى شيئاً من مبادئ الموسيقا التي أظهر ميلا نحوها. ولما آنس منه أبوه حدة الذكاء وتوقد الذهن، وجهه إلى قراءة الكتب الأدبية ولاسيما الشعر، فقرأ سير عنترة ولامارتين وفيكتور هيجو وتأثر بموسيقى الشعر العربي، فاخذ يقلد ما يأخذ من الشعرِ وعقب نيله الشهادة الثانوية التجارية شعر بأنّه مضطر لمغادرة اللاذقية هرباً من الاحتلال العثماني وبحثاً عن مجال للعمل يؤمن له

مستوى لائقا من الحياة الكريمة فهاجر إلى الإسكندرية سنة ١٩٠٨ وهو لا يزال فتى لا يتجاوز السابعة عشرة إلا أن قلبه ظل مشدوداً إلى مسقط رأسه وذكريات الطفولة ومرابع الصبا. وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية ونال إجازتها سنة ١٩٢٦ كما نال شهادة عليا بالاقتصاد والقانون وعمل في بنك الأراضي في الإسكندرية، التي كان فيها نسبة الأجانب عام ١٩٠٧ هي ٦٠%. وحرر صفحة الثلاثاء الأدبية في البصير، كما نشر شيئاً من شعره في المقتطف والرسالة وغيرهما واشترك في تأسيس جماعة نشر الثقافة، وكان أول رئيس لها، وفي تأسيس الاتحاد العربي في الإسكندرية. تزوج في أواخر حياته، ولم يرزق بأولاد ولازمه مرض القلب حتى وفاته في الثالث من شباط سنة ١٩٥١.

لقد تأثر خليل شيبوب بالأدب الفرنسي وبصديقه الشاعر الكبير خليل مطران، الذي كان أحد أقطاب الرومانسية في مصر، وبجماعة أبولو، وبجمال الطبيعة في الإسكندرية، والتي قضى تحت سمائها ثلاثاً وأربعين سنة يناجي بحرها الأزرق الساحر والعزلة التي قضاها قبل أن يتزوج، وتغربه عن الأهل والخلان والوطن فقد قال مطران في مقدمة ديوان شيبوب (الفجر الأول):

(خليل شيبوب صديقي أرادني لأقدم ديوانه. حباً لخليل وكرامة خلته مستحياً مما يسومني ما أعظم تواضعه. تالله إنه ما كان مجشمي صعباً إلا أن يدعوني إلى ما ألفت من الصدق. وهذه فرصة أشكرها له لأنه قيض لي بها أن أبدي رأيي في الضرب الذي آثره من الشعر على سواه. أقول من الشعر وأرجو أن يفرق القارئ كما فرقت بين معنى الضرب من الشاعر وبين معنى الضرب في النظم).

وقصدَ بالضرب الشعر الرومانسي.

أما أمير الشعراء فلم يستسغ الاتجاه الرومانسي عند شيبوب فقال قصيدة بعنوان (الثوب الاحمر):

شيبوب، ديوانك باكورة وفجرك الأول نور السبيل
الشعر صنفان فباق على قائلة، أو ذاهب يوم قيل

يطفح شعر خليل شيبوب بالألم والحزن والشكوى والشعور بالانكسار والعزلة الروحية ويقول:

وأودعتها الجسم الذي أصله الثرى بها في النوى داء وذلك داء
طريدة ليل قد حوتها غيابة من الجسم يصليها به البرحاء

كتبه

١- الفجر الأول: يضم الديوان إحدى وتسعين قطعة شعرية بين قصيدة وموشح نشرت بين عامي ١٩١٢ - ١٩٢٠ ويحوي الكتاب على تمهيد من الشاعر ويعبر فيه عن شكره للشاعر خليل مطران. والمقدمة كتبها نثراً الشاعر الكبير خليل مطران الذي تعرف عليه شيبوب في مكاتب جريدة الأهرام التي كانت تصدر أسبوعياً في الإسكندرية مشيراً إلى سلامة اللغة وفصاحة التعبير وجمال الديباجة في مجاراة سائر الأمم من شرقية وغير شرقية ويشرح (مطران) أنواع الشعر وأشكال مدارسه. ومقدمة شعرية بقلم أمير الشعراء أحمد شوقي وهي:

قصيدة بعنوان (الشعر) وصف فيها شعر شيبوب بقوله:

شعر جرى من جنبات الصبا
يا طيب واديه وطيب المسيل
فيه روايات الصبا والهوى
تسلسلت أشهر من سلسبيل
شيبوب ديوانك باكورة
وفجرك الأول نور السبيل

أفتتح شيبوب ديوانه بقصيدة حدود العقل لأستاذه في الفرير توما أسطفان نيسان ١٩١٣
وأخرى بعنوان نصيحة إلى آنسة: نصح فيها النساء بألا يتبرجن لأن الجميلة جميلة الأصل. والثوب الأزرق في أيار ١٩١٣ وقصيدة رجوع العافية، (لا تنسى)، العصر (ما الحب) جاء فيها:

تسائلني ما الحب قلت عواطف
منوعة الأجناس مركزها القلب
فقالت ولكن كنهه قلت ما له
لدى البحث كنه يستفاد ولا حسب
وكلّ له حبّ لأن تّضارب الـ
عواطف لا قول يفيه ولا كتب

قصيدة (عفيفة) ويقول فيها:

كذب المسمى والمسمى أنهم
ذروا الرماد على العيون ولوحوا
ما أنصفوا لما دعوك عفيفة
لكنهم شتموا العفاف وقبحوا

وأخرى بعنوان (ثالثة القمرين) في حفل تعميد حبيب بدران نجل الكاتب الكبير عبده بدران جاء فيها:

حبيب يا ثالث القمرين
وتاجاً على هامة الفرقد
وروحك أطهر من كل نور
وجسمك أنقى من العسجد

و(زهرة القرنفل) قصيدة من بيتين ودمعة على رفيقه شاكر إبراهيم ورسالة تعزية شعرية إلى صديق جاء فيها:

ماذا يفيد المرء مدمعه
تنصب والأحشاء تستعر
هل ترجع الماضي الدموع
وهل تحيي الذي طوتهم الحفر
والدمع إن جاشت غواربه
لغة النفوس وسرها الحصر

وقصيدة (شكوى لتوجعه من المرض) جاء فيها:

يا ربّ قد طال السقام
فإلامَ لا يأتي الحمام؟
أرجو من الحب الشفاء
لعله يشفي الأوام

وقصيدة (أبو قير) المدينة المصرية جاء فيها:

ليبل أبي قير أين الليالي
وأين النجوم التي تلمع
وأين الهلال وكان مساء
على البحر من خيمة يطلع
وتسرح فوق الرمال الظباء
على شاطئ البحر تستتبع

ويورد شيبوب شرحاً تاريخياً عن واقعة أبي قير الفرنسية في آب ١٧٩٨.

وتحت عنوان (نظرة إلى الماضي) يعود شيبوب إلى عمر الشباب وفيها تظهر جلياً رومانسية الشاعر فيقول:

ماذا يريد الناس منّي
إن كنت قد أكثرت حزني
ذهب الشباب و ما ملأت
بنوره قلبي و جفني
إنما العمر الطويل
يشبه العمر القصير
أفنيت عمري في البكاء
و في الرجاء و في التمني

ومما جاء في (نساء الصليب الأحمر):

الغاليات جواهراً والساطعا
ت أزاهراً والساخرات كواكبا
هذي العذارى الحاملات أشعةً
تجلو عن القلب الحزين غياهبا

وقصيدة بعنوان (العام) كتبت في سنة ١٩١٧ مما جاء فيها:

تتعاقب السنوات تالية
والعمر لا يألو به الجهد
دنيا تبكينا وتضحكنا
منا وجامعة النهى بدد

وتحت عنوان (حكم عادية) أورد:

إذا تعاميت عن ضياء
فلا يمس الضياء شين
وإن تناسيت صدق قول
فإن ذاك النسيان مين
فلا تبادر بسوء ظن
وإن تكن شككتك عين
دار جميع الأنام تمدح
فإن مدح الأنام زينُ

ومما جاء في قصيدة (على شواطئ الإسكندرية) قوله:

أشواطئ الإسكندرية فيك طيب
فيك المصيف لعاشق ولهان
وأتاك يحمل حبة وغرامه
متقيلاً في ظلك الفينان
يا مربعي دون المرابع إنني
دون المرابع واله بك عاني

وقصائد بعنوان (الأمل العاثر)، (الشتائم)، (الشاكي)، (الموعد)، (الفؤاد) وغيرها الكثير الكثير استعمل فيها كلمات رقيقة سهلة الفهم وسلسلة الأسلوب.

٢- معجم اقتصادي بالفرنسية والعربية جاء في ثمانمائة صفحة صدر عام ١٩٤٩.

٣- كتيب عن عبد الرحمن الجبرتي صدر في سلسلة اقرأ عن دار المعارف.

٤- جمع ديواناً ثانياً من شعره سماه "أحلام النهار" ولكنه لم يطبع .

وألف قصيدة طويلة سماها "ندى ونشر مجموعة من القصص القصيرة

٥- أعمال البورصة في مصر مترجم صدر عام ١٩٣٨.

شارك مع عثمان حلمي في نظم بعض القصائد الشعرية باسم "قبس من الشرق" صدر عام ١٩٣٨، ونشر مجموعة من القصص والمقالات في جريدة (البصير) تحت عنوان بريد الثلاثاء.




القصيدة الغزاوية

شعر: عادل بكرو

غــزّي نصــالَكِ في الصــدورِ النــوّمِ
يــا غــزّةً في القلــب.. يــا وهــجَ الــدمِ
يــا غــزّةَ الوجــعِ العنيــدِ، ورجعِــه
قــد باعَــك الصــيدُ الرجــالُ بــدرْهمِ
مــاذا عيســايَ أقــولُ في قــيظِ الــردى؟
فأنــاملي احترقــت، وقُيّــد معصــمي
غرقــتْ حــروفي بالــدماءِ، وحشــرجتْ
آهــاتي الحــرّى خنــاجرَ في فمــي
يــا غــزّةَ الــنيرانِ يــا أنشــودةً
نامــتْ علــى صــدرِ الأســى المتكــوّمِ
صــوغي كفاحَــكِ مــن نزيــفِ ملاحــم
ولترحمــي إنْ شــئتِ.. أو لا ترحمــي
إيّــاكِ أن تــتلفّتي لنعيقنــا
فلقــد سمــوتِ علــى أديــمِ الأنجــم
خــارتْ قوانــا وانــبرتْ كلماتُنــا
تُرغــي وتُزبــد علقمــاً في علقــمِ







يـــا للتماثيـــلِ الـــتي قـــد نكّســـتْ
جبهاتِهـــا لـــدمى الظـــلامِ المـــبهمِ
أيُّ اعتـــدالٍ قـــد كســـاهم زيفَـــه
وشـــعوبُهم بلظـــى القـــذائفِ تحتمـــي
داروا ظهـــورَهُم لحـــقٍّ ســـاطعٍ
وأنـــوفهمْ زكَمـــتْ علـــى ريـــحِ الـــدمِ
عـــافوا الجـــراحَ الفـــائراتِ لنزفِهـــا
وخبـــا ضـــميرُ العـــالَمِ المُتقـــدِّمِ
قـــد نـــدّدوا.. واســـتنكروا.. واستصـــرخوا
فاستبشـــري يـــا غزّتـــي.. وتبسّـــمي
هـــا أنـــتِ (بورصـــتُهم) وبعـــضُ حـــديثهمْ
أعطـــوكِ (شـــيكاً) مغـــدقاً فتنعّمـــي
أطفـــالَ غـــزّةَ لا تنـــادوا منجـــداً
صـــرنا خيـــالاً في مغـــارٍ معـــتمِ
الجـــرحُ إذْ يقتـــاتُ مـــن أكبادنـــا
وأكفّنـــا نُعطـــى لكـــفِّ المجـــرمِ
أطفـــالَ غـــزّةَ قـــد حصـــدتم عـــزّةً
وحصـــادُنا شـــوكٌ بـــذاكَ الموســـمِ
فتبرّعـــوا بـــدمائكم لـــدمائنا
فعروقنـــا مـــا عـــادَ فيهـــا مـــن دمِ
بتنـــا بمأســـاةِ الـــدموعِ وطأطـــأتْ
منّـــا الـــروسُ لكـــلّ وغـــدٍ ظـــالمِ







جفّـــتْ مـــآقي الحـــزنِ في أشـــعارنا
يـــا غـــزّةَ الزفـــراتِ تـــنهشُ أعظمـــي
في صـــهوةِ التـــاريخِ عفنـــا مجـــدَنا
وتســـابقتْ أقـــدامُنا للأعجمـــي
يـــا لـــذّةَ المـــوتِ المرصّـــعِ بالـــدما
حنّـــي بنادقنـــا ســـناً.. وتكلّمـــي
يـــا نكهـــةَ البـــارودِ دونـــكِ قائـــدٌ
أســـدٌ هصـــورٌ.. ســـيفُه لم يُـــثلمِ
ســـيفُ الشـــآمِ ومـــن ســـواهُ مُشـــرعٌ
بـــالحقِّ لا تثنيـــه لومـــةُ لائـــمِ
دامـــتْ أياديـــكَ الكريمـــةُ مـــوئلاً
تعطـــي فتزهـــرُ في العطـــاءِ كـــبرعمِ
يـــا غـــزّةَ الأنـــوارِ تمـــلأُ خـــافقي
ذرّي الشـــظايا عـــن حمـــاكِ ولملمـــي..
فلأنـــتِ – رغـــمَ جراحنـــا – أســـطورةٌ
ســـكرَ البيـــانُ علـــى فضـــاها المضـــرمِ
شـــدّي رحالَـــكِ للخلـــودِ وعـــانقي
طهـــراً علـــى كـــفّ الـــنبي ومـــريم
(والـــتينِ والزيتـــونِ) والأرضِ الـــتي
قـــد بوركـــتْ بكتـــابِ ربّـــي المـــنعمِ
هـــا قـــد كتبـــتِ روائعـــاً مـــن أحـــرفٍ
حيكـــتْ بنـــورٍ طـــافحٍ متنـــاغمِ